مرتكزات التأصيل الفلسفي للقيم الأخلاقية في الطرح الإنسانوي الغربي المعاصر "رؤية نقدية"

إعداد

أ/ مصطفى علي السيد محمود

المدرس المساعد بقسم أصول التربية

كلية التربية بالقاهرة- جامعة الأزهر

أ.د/ حسين محمد محمد نور

أستاذ أصول التربية

كلية التربية بالقاهرة- جامعة الأزهر

أ.د/ السيد محمد عبد اللّه خلف

أستاذ أصول التربية

كلية التربية بالقاهرة - جامعة الأزهر

مرتكزات التأصيل الفلسفي للقيم الأخلاقية في الطرح الإنسانوي الغربي المعاصر "رؤية نقدية"

مصطفى علي السيد محمود[1]، حسين محمد محمد نور، السيد محمد عبد الله خلف

قسم أصول التربية، كلية التربية بنين بالقاهرة_جامعة الأزهر.

[1]**البريد الإلكتروني للباحث الرئيس:** me8261005@gmail.com

مستخلص البحث:

هدف البحث إلى تقديم رؤية نقدية لواقع التأصيل الفلسفي للقيم الأخلاقية من منظور الاتجاه الإنسانوي في الفكر الغربي المعاصر للتحقق من أمرين: الأول، مدى اتساق هذا الواقع مع مقتضيات التوجه العام المادي للإنسانويين، والثاني، مدى كفاية هذا الواقع لتأسيس مشهد تربوي أخلاقي مستقل عن الدين السماوي، واعتمد البحث على منهج التحليل الفلسفي لتقديم رؤية نقدية تعتمد الاستقراء الإقصائي لنبذ واستبعاد التفسيرات الواهية في القضية المعروضة للنقاش، وتوصلت الدراسة إلى أن حديث الإنسانويين عن الأخلاق يشكل مغالطة منطقية وسقطة منهجية كبرى لا تتسق أبداً مع لوازم التوجه المادي لهذا التيار، ومن جانب آخر فإن ما يقدمه الإنسانويون من أبعاد فلسفية لتأسيس مشهد أخلاقي ملحد، هذه الفلسفة لا تستوفي الكفاية النظرية اللازمة لتحقيق ذلك، فالإنسانويون يعلمون عجزهم عن التأصيل الفلسفي للمشهد الأخلاقي، لذا يعمدون إلى تجاهل البعد الأنطولوجي للأخلاق، حيث تدور كافة مناقشاتهم وتأطيراتهم حول البعد الإبستمولوجي فقط، وهذا الأخير ليس محل نزاع، حيث "يوجد ملحدون على أخلاق لكن لا يوجد إلحاد أخلاقي"، ومن هنا يتأكد أن الأخلاق لا يمكن تأصيلها أو المحاججة عنها في ظل إنكار وجود الإله؛ لأن هذا الإنكار له ما بعده، حيث يستدعي إنكار الأخلاق أيضاً، ومن يكابر في ذلك يقع في التناقض لا محالة.

الكلمات المفتاحية: القيم الأخلاقية، الإنسانوية، فلسفة الأخلاق.

Foundations of the Philosophical Roots of Moral Values in Contemporary Western Humanist Thought: A Critical View

Mostafa Ali Elsayed Mahmoud & Hussein Mohamed Mohamed Nour& Elsayed Mohammed Abdullah Khalaf

Department of Fundamentals of Education, College of Education for Boys, Cairo - Al-Azhar University.

[1]**Corresponding author E-mail**: me8261005@gmail.com

ABSTRACT:

The aim of the research was to present a critical view of the status-quo of the philosophical rooting of moral values from the perspective of the humanist trend in contemporary Western thought to verify two things: First, the extent to which this status-quo is consistent with the requirements of the general materialistic orientation of humanists. Secondly, the adequacy of this status-quo to establish an educational and moral scene is independent of the divine religion. The research made use of the philosophical analysis method. The study concluded that the humanists talk about morals constitutes a logical fallacy that is never consistent with the requirements of the materialistic orientation of this school. On the other hand, the philosophical dimensions that the humanists present to establish an atheistic moral scene does not meet the theoretical sufficiency necessary to achieve this, as the humanists knowing their inability to philosophically root the moral scene. They tend to ignore the ontological dimension of morality. All their discussions and framing revolve around the epistemological dimension only; thus it is confirmed that ethics cannot be rooted in light of the denial of the existence of God because it also entails a denial of morals**.**

keywords: Moral Values, Humanism, Moral Philosophy.

مقدمة الدراسة:

تعد القيم الأخلاقية ركيزة أساسية وقاعدة تأسيسية لنشأة الأمم وتكوين المجتمعات، حيث تمثل أطراً معيارية حاكمة ومنسقة لحركة الأفراد داخل المجتمع، لذلك تعمد كافة المجتمعات إلى تبني مجموعة من القيم كركيزة أساسية لتربيتها الأخلاقية، وتحرص على أن تكون هذه القيم عامة وراسخة لدى غالبية أفراد المجتمع لضمان بقائه واستقراره وتماسك أركانه.

وقد عني الباحثون _قديماً وحديثاً شرقاً وغرباً_ بهذا الملف عناية خاصة للوقوف على مسائله وتفصيلاته، ورغم تباين وجهات نظرهم إلا أن جهودهم أسفرت عن جملة من الأسس التي يقوم عليها المشهد الأخلاقي، وهذه الأسس يمكن إجمالها في: الأساس الفلسفي، والنفسي، والعقلي.. ويبدو أن المصدر الرئيس للمشكلة الأخلاقية منشأه الخلل في الأساس الفلسفي للأخلاق، فقد تباينت وجهات النظر حول تحديد معاني وحدود القيم الأخلاقية ومصدرها، ويرجع ذلك إلى الاختلاف في النظرة إلى الوجود(بوسماحة، فرطاس، 2018، 327).

ويقدم الإنسانويون الغربيون أنفسهم باعتبارهم طائفة "المتنورين" الذين يملكون وجهة نظر طبيعية للعالم تخلو مما هو خارق للطبيعة، ويدعون أنهم يبنون أخلاقهم وعملهم وفقاً لوجهة النظر الطبيعية للعالم(حسن، 2015، 30). وذلك تماشياً مع العقيدة المركزية التي ينطلق منها الفكر الإنسانوي المعاصر، والتي تتمثل في أن: "الطبيعة فقط بما فيها البشر والأفعال الناتجة عنهم هي الحقيقة، وأن الله غير موجود، وأن العلم يمكن أن يزودنا بمعرفة كاملة وموثوقة عن الواقع"(Haught, 2008, x) فالجهد الإنسانوي في الفكر الغربي المعاصر متمركز حول فكرة الاستقلال التام عن عقيدة الألوهية التي يرونها محض زيف وتوهم.

وتقويضاً لعقيدة الألوهية، وإرساءً لمبدأ الاستقلال التام.. يعمل الإنسانويون جاهدين على عدة ملفات يأتي في مقدمتها الملف الأخلاقي، والذي ينطلقون فيه عبر مسارين(حسن، 2015، 509):

الأول: هو نسف أخلاق وقيم الدين التي يرون أنها بدائية غير مقبولة ومقيتة.

الثاني: الزعم بأن الله غير ضروري للأخلاق، إذ يخبرون أنهم ليسوا رافضين للأخلاق في ذاتها، بل يرفضون فقط النظرة التقليدية التي تقول بأن الأخلاق تعتمد على الله بشكل أو آخر، وتعبر نظرتهم عن أن باستطاعتنا أن نكون أخياراً دون الله.

وبما أن فلسفة التربية هي وسيلة الفلسفة العامة لتحقيق غاياتها، لذلك لا بد أن تكون مشبعة بقيم هذه الفلسفة في جميع فعالياتها بحيث توجه العملية التربوية وتجعل منها عملاً غرضياً هادفاً مؤثراً في بناء شخصيات الطلاب، فهي تبرز طبيعة ومكانة القيم التي تؤثر على سلوكهم وتوجهه ضمن إطار فلسفة الحياة التي تدور العملية التربوية في إطارها(ريان، 1985، 5). وهذا يستدعي بضرورة الحال أن يكون المكون الأخلاقي _في بعده التطبيقي الموجّه للمشهد التربوي_ منطلقاً من أسس تأصيلية "فلسفية" راسخة وكافية من جانب، ومتسقة مع التوجه العام السائد من جانب آخر؛ حتى يمتلك مبررات اعتماده وتعميمه كبعد معياري حاكم وموجه للعمل التربوي الأخلاقي، والتصرفات الفردية والجماعية المختلفة.

مشكلة الدراسة:

يؤسس الإنسانويون فلسفتهم الأخلاقية انطلاقاً من قناعاتهم المادية الإلحادية حيال المسائل الوجودية الكبرى المتعلقة بالكون والحياة والإنسان، وفي إطار رفضهم المسبق لكافة أشكال التجاوز المادي، يقررون أن القيم الأخلاقية تعبر عن موضوع طبيعي شأن أي موضوع آخر يمكن بحثه وتأصيله وفق إطار المعطيات المادية للواقع المشاهد، دون حاجة إلى استلهام تصورات ميتافيزيقية مجاوزة لهذا الواقع.

ولا يكتفي الإنسانويون بطرح تصوراتهم حيال المشهد الأخلاقي باعتبارها نموذجاً فلسفياً خاصاً بهم، بل يسعون جاهدين إلى نشر وتعميم تلك التصورات بكافة السبل والوسائل الممكنة، وتقديمها في صورة حماسية مستعلية، باعتبارها رؤية كونية وحقيقة نهائية Ultimate fact مبرهنة ومستغنية عن "خرافات الدين وتوهماته"، ويستهدفون من وراء ذلك تقويض الدين السماوي بصورة عامة والإسلامي على وجه الخصوص، وذلك بإحلال التصورات الإنسانوية محل التصورات الدينية -خاصة في مجال التربية والأخلاق- إذ يؤكدون أن الدين خداع أسطوري لا يصلح لتأسيس الأخلاق وكفالتها، حيث يقدم من وجهة نظرهم "سردًا معيبًا وغير دقيق للواقع الخارجي وللإنسان، ومعنى غير مرضٍ لإطار الحياة، وأساساً غير معقول للأخلاق an implausible basis for ethics"(Copson, 2015, 25).

وتأتي الدراسة الحالية كمحاولة منهجية لتقديم رؤية تحليلية نقدية لأبعاد هذه الفلسفة الإنسانوية المتعلقة بالقيم الأخلاقية، للكشف عن مدى صلاحيتها لتحقيق ما ترمي إليه من بناء مشروع تربوي أخلاقي "ملحد" يُراد له أن يأخذ طابعاً كونياً، وتحقيقاً لذلك حاولت الدراسة الحالية الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما الإطار الفكري للقيم الأخلاقية في السياق الفلسفي العام؟
- ما المرتكزات الفكرية المحددة للاتجاه الإنسانوي في الفكر الغربي المعاصر؟
- ما مدى تحقيق واقع فلسفة القيم الأخلاقية الإنسانوية للكفاية التنظيرية اللازمة لبناء مشهد تربوي أخلاقي مستقل عن الدين؟
- ما مدى اتساق هذا الواقع مع الإطار الفلسفي العام للاتجاه الإنسانوي في الفكر الغربي المعاصر؟

هدف الدراسة:

هدفت الدراسة الحالية إلى تقديم رؤية تحليلية نقدية للأبعاد الفلسفية المتعلقة بالقيم الأخلاقية من وجهة نظر الاتجاه الإنسانوي في الفكر الغربي المعاصر؛ للتحقق من صلاحية هذه الفلسفة في توفير الكفاية التنظيرية اللازمة لبناء مشهد تربوي أخلاقي مستقل عن الدين، وإبراز مدى الاتساق والتناقض المنهجي لأبعاد هذه الفلسفة الأخلاقية مع مقتضيات التوجه المادي الإلحادي الذي يتبناه الإنسانويون كفلسفة عامة حيال الكون والوجود.

أهمية الدراسة:

يمكن بيان هذه الأهمية وتبريرها بشيء من التفصيل الخاص، والذي يمكن توضيحه عبر المستويات التالية:

- **المستوى الفلسفي للتربية:** لكي تنطلق الأطر العملية والممارسات التربوية الأخلاقية من مرجعية فكرية سليمة، فلا بد من بحث وتحرير الركائز الفلسفية النظرية التي تنبني عليها هذه التربية؛ لأن فساد التصور أو تشويشه يؤدي حتماً إلى فساد الممارسات وقصور التطبيق. وحيث يستهدف الإنسانويون من تصوراتهم الملحدة قيام واقع تطبيقي عالمي كامل يستقي من تلك التصورات بما في ذلك منظومة التربية الأخلاقية، فإن ذلك يقتضي بحث الأسس الفلسفية التي يُراد لها أن تكون مرجعية للمنظومة التربية، فالحديث عن الفلسفة الأخلاقية حديث تربوي من الدرجة الأولى.
- **المستوى التطبيقي العام:** إذا كانت الفلسفه في المنظور العام قد تعبر عن تجريدات عقلية مفاصلة للواقع في بعض الأحيان، فإن الأمر مختلف تماماً فيما يتعلق ببحث القيم الأخلاقية؛ وذلك لأن "الفلسفة الأخلاقية ميدان مثير من ميادين الفلسفة، إنه المكان الذي يظهر فيه بأجلى مظاهره تطبيق الفلسفة على الحياة الحقيقية"(باجيني، 2010، 134)، فالبحث الأخلاقي يعبر عن "فلسفة تطبيقية" لها أهمية تربوية وضرورة حياتية خاصة.
- **مستوى الهوية والأمن الفكري التربوي:** في ظل الانفتاح الثقافي غير المسبوق في الوقت الراهن، لم تعد الأمة العربية الإسلامية بمعزل عن الأفكار والمتغيرات العالمية، فالمشروع الإنسانوي يستهدف الأمن الفكري التربوي الإسلامي على نحو خاص، وهذا يستدعي أن يكون للبحث التربوي الإسلامي إسهاماً نوعياً يتخطى إطار الدفاع إلى محور الهجوم النقدي المستند إلى الدليل.

منهج الدراسة:

استخدمت الدراسة منهج التحليل الفلسفي، ويتمثل تطبيق هذا المنهج في عملية تفكيك موضوع الدراسة لعناصر بسيطة وأولية، ثم عملية نقد وتقويم للمعلومات والبيانات المطروحة، وفي النهاية تأتي مرحلة التركيب أو الاستنتاج والخروج بمفاهيم وأحكام واضحة.

محددات الدراسة:

اقتصر الحد الموضوعي للدراسة الراهنة على تناول الأبعاد والمحددات الفلسفية المتعلقة بالقيم الأخلاقية من منظور الاتجاه الإنسانوي في الفكر الغربي المعاصر، وذلك بداية من صدور البيان الإنسانوي الأول Humanist Manifesto I عام (1933) وحتى الآن، حيث تم استجلاء عدد من المصادر والكتابات والمواثيق المعبرة عن رؤية هذا الاتجاه وتصوراته الفلسفية حيال المشهد الأخلاقي للوقوف على واقع هذه الفلسفة وتناولها برؤية نقدية فلسفية.

مصطلحات الدراسة:

القيم الأخلاقية:

تعرفها الدراسة الحالية بأنها: معايير وموجهات موضوعية عامة للسلوك البشري، تحدد ما ينبغي وما لا ينبغي من التصرفات الفردية والجماعية، كما تستخدم كمقاييس لإصدار أحكام أخلاقية على السلوكيات والأفعال المختلفة.

الاتجاه الإنسانوي Humanism:

تشير المنظمة الإنسانوية البريطانية "Humanists UK" إلى أن كلمة "Humanism" في الوقت الراهن تعبر عن توجه فكري لـ "أشخاص غير متدينين يعتقدون أن هذه الحياة هي الحياة الوحيدة التي لدينا، وأن الكون هو ظاهرة طبيعية ليس لها جانب خارق للطبيعة، وأنه يمكننا أن نعيش حياة أخلاقية ومرضية وإنسانية أيضاً على أساس العقل. أولئك الذين وثقوا في المنهج العلمي والأدلة والعقل لاكتشاف الحقائق حول الكون، ووضعوا رفاهية الإنسان وسعادته في صميم اتخاذ قراراتهم الأخلاقية"(Humanists UK, n.d).

التعريف الإجرائي للدراسة:

يقصد بمرتكزات التأصيل الفلسفي للقيم الأخلاقية في الطرح الإنسانوي الغربي المعاصر: الدراسة التحليلية النقدية للأبعاد والمحددات الفلسفية المتعلقة بالقيم الأخلاقية من منظور الإنسانويين في الفكر الغربي المعاصر، وذلك عبر استجلاء عدد من المصادر والكتابات والمواثيق المعبرة عن رؤية هذا الاتجاه وتصوراته الفلسفية حيال المشهد الأخلاقي للتحقق من أمرين: الأول، مدى الكفاية التنظيرية لتأسيس مشهد تربوي أخلاقي ملحد، والثاني، مدى اتساق وعدم تناقض هذه الفلسفة مع تقريرات الفلسفة الوجودية العامة لهذا التيار.

الدراسات السابقة:

دراسة أبو سمعان(2011): وهدفت إلى بيان منزلة الإنسان ووجوده في المذاهب الفكرية المعاصرة كدراسة نقدية في ضوء الإسلام، واستخدمت المنهج الوصفي التحليلي النقدي، ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها أن التيارات الوافدة بمبادئها الهدامة تهدف إلى تدمير الإنسان، وإلى هدم الأخلاق التي قررها الإسلام؛ وذلك بترويج المفاهيم المادية الزائفة بتصور الإنسان تصوراً حيوانياً يخضع لشهواته. وخلصت الدراسة إلى أن مذهب الإنسانية هو وجه آخر من وجوه العلمانية المنتشرة بقوة في البلاد الغربية؛ الرامية لسلخ الناس من دينهم وعقائدهم وقيمهم ونشر الإلحاد بينهم.

دراسة: "ڤاينو" VAINIO (2013): وسعت إلى بحث موضوعية الأخلاق في الطرح الفلسفي الأخلاقي فيما بعد دارون، وأظهرت الدراسة أن نظريات التعاقد الاجتماعي، والواقعية الطبيعية كلاهما يفشل من حيث القدرة على توفير أساس لواجبات أخلاقية ملزمة عالميًا. وأن ما يسمى بالخيار غير الطبيعي non-naturalist option لا يتساوى مع النظريات التوحيدية theistic theories، فرغم اتفاقهما على كون الموضوعية الأخلاقية تنبني على حقائق أخلاقية غير طبيعية

إلا أن ثمة إشكاليات مرتبطة تظهر الفارق بين وجهتي النظر، فالواقعية الأخلاقية تواجه إشكالية تعرف بـ"المعضلة الداروينية" DARWINIAN DILEMMA: ذلك أن وظائفنا المعرفية التي انتخبها التطور تسعى إلى تحقيق البقاء، لكنها لا تقتفي الحقيقة بالضرورة، وبذلك يصبح من الصعوبة بمكان الادعاء بأن تقييماتنا الأخلاقية صحيحة على نحو موضوعي أو مطلق.

دراسة "دلفينو": Robert A. Delfino (2015): وهدفت إلى بحث البعد الأخلاقي في ظل التصور المادي للإلحاد الجديد The new atheism ، حيث حاولت الإجابة عن سؤال: هل يمكن أن توفر عقيدة الطبيعانية الميتافيزيقية (عدم وجود كيانات خارقة للطبيعة) التي يلتزم بها "الملحدون الجدد" The New Atheists أساساً كافية للقيم الأخلاقية الموضوعية؟ وتوصلت النتائج إلى أن هذا الأمر غير ممكن، فالطبيعانية الميتافيزيقة لا تصلح أن تكون أساساً كافياً للقيم الأخلاقية الموضوعية، لأنه لا يمكن للطبيعانية الميتافيزيقة أن تفسر الحرية والفاعلية الأخلاقية، فالقوة السببية لتبني خيارات حرة بالأصالة لا يمكن أن تنشأ عن العالم الفيزيائي المجهري "الكمي أو غير الكمي". كما أن "مشكلة ما هو كائن وما ينبغي أن يكون" في سياق الطبيعانية الميتافيزيقة يعيق الطبيعة التقريرية للقيم الأخلاقية الميتافيزيقية، فالطبيعة المادية الصرفة معزولة عن الغاية التي تقررها القيم الأخلاقية الموضوعية. إضافة إلى إشكالية الإمكان الجذري وتعالي الأشخاص _التي تنتج من الطبيعانية الميتافيزيقة_ تعيق القوة الواجبة التي يفترض أن تتلازم مع القيم الأخلاقية الموضوعية. ففي ظل إشكالية الإمكان الجذري ستكون الأخلاق اعتباطية لا أساس لها، وهذا يقوض الإلزام الأخلاقي، وفي ظل إشكالية تعالي الأشخاص ستكون الأخلاق مفروضة من الأدنى "المادة" على الأعلى "الإنسان".

دراسة: كريمة دوز(2016): وهدفت إلى دراسة الأخلاق بين الأديان السماوية والفلسفة الغربية دراسة وصفية تحليلة، واستخدمت المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج المقارن، ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها أن عناية الأديان السماوية لم تكن متعلقة بالتوحيد والعبادة فقط، بل جمعت بين الجانب العقدي والتعبدي والجانب الأخلاقي في إطار متجانس، وبذلك قامت الأخلاق الدينية على أسس ثابتة لا يمكن تبديلها وتغييرها مهما تغيرت ظروف الإنسان وأحواله، مستندة في كل ذلك على الوحي الإلهي الذي يرسم الطريق الأخلاقي للإنسان. وأن العقل كان منذ الفلسفة اليونانية وحتى الفلسفة الحديثة هو المصدر الذي تستمد منه الأخلاق. وكان لما وصلت إليه أوروبا من تقدم مادي الأثر الواضح في ظهور بعض المذاهب الأخلاقية التي نادت بفصل الأخلاق عن الدين وبهدم أي تصور معياري للأخلاق، وهكذا لم يعد مجال للحديث عن قيم ثابتة تسير عليها البشرية في تحديد مبادئها الأخلاقية.

دراسة أحمد فتحي محمد(2018): وهدفت إلى توضيح خاصية من خصائص التربية الإسلامية، وهي خاصية الإنسانية ومقارنتها مع النزعة الإنسانية في التربية الغربية، واستخدمت المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج المقارن، ومن أبرز النتائج التي توصلت إليها أن النزعة الإنسانية في التربية الغربية اتسمت بالبشرية، والنسبية، والحرية المطلقة غير المسؤولة، والعداء للدين، والثقة المطلقة بالعقل، وقد أفرزت نتيجة لذلك إنسان البعد الواحد، لا ضابط لحريته إلا القانون الذي يتسم بالنسبية والتناقض والقابلية للتحايل عليه، كما أفرزت إنساناً أنانياً نفعياً برجماتياً يدور في فلك شهوته.

تعقيب عام على الدراسات السابقة:

فيما يتعلق بالدراسات العربية، بعضها هدف إلى بيان منزلة الإنسان ووجوده في المذاهب الفكرية المعاصرة كدراسة **(أبو سمعان، 2011)**. والبعض الآخر هدف إلى دراسة الأخلاق بشكل عام بين الأديان السماوية والفلسفة الغربية كدراسة **(دوز، 2016)**، لكنها في محور دراسة الأخلاق في الفلسفة الغربية الحديثة اقتصرت على تناول الأخلاق عند تيارين فقط، الأول، الفلسفة النفعية، مقتصرة فيها على آراء كل من "جيرمي بنتام" Jeremy Bentham(1748- 1832)، و"جون استيوارت مل" John Stuart Mill(1806-1873)، والثاني، الفلسفة الوضعية، مقتصرة على آراء "أوجيست كونت" Auguste Comte (1798-1857). بينما هدفت دراسة **(فتحي، 2018)** إلى توضيح خاصية من خصائص التربية الإسلامية، وهي خاصية الإنسانية ومقارنتها مع النزعة الإنسانية في التربية الغربية. وسعت دراسة **("فاينو" VAINIO، 2013)** إلى بحث موضوعية الأخلاق في الطرح الفلسفي الأخلاقي فيما بعد ظهور نظرية التطور وانتشار الفكر الإلحادي. بينما هدفت دراسة **("دلفينو" Delfino، 2015)** إلى بحث بعض جزئيات البعد الأخلاقي في ظل التصور المادي للإلحاد الجديد للكشف عن إمكانية توفير العقيدة المادية أسساً كافية للقيم الأخلاقية الموضوعية. بينما هدفت الدراسة الراهنة إلى تقديم رؤية نقدية شاملة للأبعاد الفلسفية المتعلقة بالقيم الأخلاقية من وجهة نظر الاتجاه الإنسانوي في الفكر الغربي المعاصر؛ للتحقق من صلاحية هذا الطرح لتوفير الكفاية التنظيرية اللازمة لبناء مشهد تربوي أخلاقي مستقل عن الدين، وإبراز مدى الاتساق والتناقض المنهجي لأبعاد هذه الفلسفة الأخلاقية مع مقتضيات التوجه المادي الإلحادي الذي يتبناه الإنسانويون كفلسفة عامة حيال الكون والوجود. وهذا ما لم تتناوله أيٌّ من الدراسات السابقة على هذا النحو.

الإطار النظري للدراسة:

أولاً/ البعد المفاهيمي للقيم الأخلاقية:

تتلاقى المعاني المحدِّدة لمفهوم القيمة في معاجم اللغة العربية بما يشبه التوافق الدلالي فيما بينها، وفي هذا ما يشير إلى استقرار هذا المفهوم في المادة المعجمية التي تناولته، فأصل القيمة مأخوذ من مادة (قام)، أو (قوم)، ومدلول هذا المفهوم يدور حول معاني الاستقامة، والاعتدال، والتقدير المقتضي للتصنيف. ومفهوم القيمة في اللغات الأوروبية ينطوي في ذاته على طابع أخلاقي، وهذا الطابع يتجلى في المصادر اللغوية لهذا المفهوم، حيث توجد هذه السمة الأخلاقية في الأصل الأجنبي للغات الإنجليزية والفرنسية، فكلمة قيمة ترجمة(Value) في اللغة الإنجليزية، وترجمة لكلمة(Valuer) في اللغة الفرنسية، والكلمة في مختلف أصولها تشير إلى معني الحق والخير والجمال(Mialaret, 1979, 453).

أما القيم الأخلاقية فيعرفها البعض بأنها: "مجموعة من المبادئ تعمل على احترام الإنسان لنفسه، وللآخرين كقيمة يتميز بها الإنسان، وتكوّن الوازع النفسي الذي يمنعه من الانحراف عن الصلاح، وذلك بصياغة سلوكه وتصرفاته في إطار محدد يتفق وينسجم مع المبادئ والقواعد التي يؤمن بها بقية أفراد المجتمع"(أحمد، 2004، 11). فالقيم الأخلاقية بناءً على ذلك يتأسس مفهومها انطلاقاً من تأكيد الطابع العمومي للأخلاق، وبيان وظيفتها الإصلاحية الذاتية المتمثلة في الأمر بالفضائل والحث عليها، والنهي عن الرذائل.

أهداف القيم الأخلاقية:

يتمثل الهدف العام للقيم الأخلاقية في تحقيق إنسانية الإنسان وتزكيته بتوفير بيئة مجتمعية وحياة كريمة تليق بمكانة الإنسان ومنزلته، بيئة قوامها التآلف والتكافل والتراحم، يزاول أفرادها حياتهم الواقعية التامة في إطار من التسامي sublimate والتطلع إلى المثل العليا ومحاولة تمثلها وتجسيدها بصورة حية في شبكة العلاقات والتعاملات البينية، حتى يحقق غاية وجوده على أكمل ما يكون. ويرى بعض الباحثين أن أهداف القيم الأخلاقية تتمثل في(وطفة، 2012، 99):

أهداف فردية: تعمل على إيصال الفرد إلى نضجه الأخلاقي وكماله الإنساني.

أهداف اجتماعية: وتتمثل في تمكين الفرد من بناء علاقات أخلاقية مع الآخرين بدءاً من الأسرة التي ينتمي إليها، وحتى المجتمع الإنساني عامة.

أهداف مهنية: وتتمثل في تمكين الفرد من أن يصير مواطناً منتجاً وفاعلاً في الحياة الاجتماعية للمجتمع الذي ينتمي إليه.

أهمية القيم الأخلاقية:

تمثل القيم الأخلاقية بالنسبة للتكوين البشري ضرورة وجود، وشرط استمرار؛ فلا يستطيع الإنسان _مهما حاول_ أن يحيا على مستوى الغريزة instinct وفقط، بل لا بد له من تجاوز ذلك؛ لأنه يملك وعياً وإرادة وقدرة على فعل الخير واقتراف الشر، بخلاف غيره من المخلوقات الأخرى ذات التوجه الأحادي unidimensional والضرورة الطبيعية التي لا تملك حيالها خياراً ولا إرادة، فلا تتحقق إنسانية الإنسان إلا في إطار البعد القيمي الأخلاقي، وإلا هبطت منزلته _بحكم مؤهلاته_ إلى ما دون العجماوات. والأمر كذلك بالنسبة للمجتمع، فالقيم الأخلاقية أيضاً ضرورة وجود وشرط استمرار، فهي آصرة التجمع والتآلف، وركيزة التماسك والتمايز، وبفقدها ينهار المجتمع وتتهاوى أركانه.

مصدر القيم الأخلاقية:

تعددت وجهات النظر حول الجهة أو المصدر المؤسس للقيم، وفيما يلي توضيح لأبعاد هذه المسألة وفق التناول التالي:

الاتجاه الديني religious: يرى "بيري" Perry أن الدين حاضر في كل فروع المعرفة الإنسانية، ففلسفة الدين هي أهم ما تعتمد عليه النظرية العامة للقيمة، فالدين يتعامل مع القيم سواسية، وهو في هذا يتعامل مع القيم كقوة عليا مستمدة من الله، وهي المرجع للوجود كله، والدين ليس عنصراً خاصاً منفرداً للقيمة، بل هو يعمل كإطار لكل القيم(PERRY, 2014, 8-9). فالدين هو الركيزة الأساسية والجهة التأسيسية الكبرى فيما يتعلق بأصول المشهد الأخلاقي وقاعدة تأسيسه، فالقيم الأخلاقية الموضوعية لا يمكن أن تقوم بعيدة عن الدين، فهي إحدى ثمراته ومعطياته، ولا يمكن أيضاً فصل الدين عن الأخلاق، حيث إن العلاقة بينهما تداخلية متشابكة إلى أبعد الحدود.

الاتجاه المثالي idealism: يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأخلاق قيم مجردة مطلقة تأخذ طابع مثل كونية كامنة في النفس الإنسانية، فهي تنتسب إلى عالم علوي سماوي حيث تحلق النفس والروح الإنسانية قبل الحلول في الجسد، ويعد "أفلاطون" زعيم هذه النزعة المثالية في نظريته

حول عالم المثل(وطفة، 13، 115). فالقيم الأخلاقية بناءً على ذلك تعبر عن مثل عليا خالدة ذات مصدر خارجي مفارق للواقع الحياتي.

الاتجاه الطبيعي (المادي): يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأخلاق تعبر عن موضوع طبيعي واقعي، فالطبيعة هي مصدر كافة الأخلاق والقيم بلا استثناء، وبناءً على ذلك يؤكد الطبيعيون على أن الأخلاق ليست مستمدة من الدين وليست متعالية على المادة(Murry, 2007, 6). وهذا الطرح المادي حيال القيم الأخلاقية محل إشكال، لأن المادية الصرفة القائمة بذاتها _إن صح هذا التعبير_ لا تملك وعياً لا بذاتها ولا بمحيطها، ولا تتصرف في تفاعلاتها من منطلق أخلاقي، فأنى لمثل هذه الوضعية أن تؤسس منظومة أخلاقية.

الاتجاه الاجتماعي: المجتمع وفقاً لهذه النظرية يشكل مصدر الأنظمة الأخلاقية، إذ تنبع القيم الأخلاقية من دواعي الحياة الاجتماعية ومتطلباتها، ويؤمن أصحاب هذا الاتجاه بنسبية الأخلاق وتغيرها بتغير المجتمعات وتنوع الأنظمة الاجتماعية، فالأخلاق ترتبط بالحياة الاجتماعية وتنبثق من صلب التفاعلات الاجتماعية، حيث يقوم كل مجتمع بفرض قيم ومعايير أخلاقية تنسجم مع طبيعته الاجتماعية، وتتناغم مع فلسفته الأخلاقية(وطفة، 13، 115).ومن أبرز الانتقادات التي وجهت إلى هذا الاتجاه أنه لو صح الاعتماد على رأي الأغلبية في الحكم الأخلاقي لتعين أن "هتلر" مثلاً كان على صواب أخلاقي في نظرية التفوق العرقي التي تبناها ونالت قبولاً جمعياً في الوسط الألماني آنذاك، كما أن هذا التوجه يقوض مساعي الإصلاح الفردية عبر إخضاع الفرد دائماً واستلابه لإرادة المجتمع وتوجهاته أياً كانت.

الاتجاه الاقتصادي: ويتمثل هذا الاتجاه في الفلسفة الماركسية Marxism حيث تربط بين الأخلاق والاقتصاد، وتؤكد أن القيم الأخلاقية هي وليدة الوضع الاقتصادي الذي يعيشه المجتمع لأنها انعكاس للعلاقات الإنتاجية المتغيرة(أسبورن، 1992، 89). فالقيم الأخلاقية وفق هذا الاتجاه متغيرة ونسبية، وتتحدد في إطار وسائل الإنتاج وعوامل التوزيع الاقتصادي المتبعة في كل مجتمع، فللمجتمع الرعوي قيمه وأخلاقه الخاصة التي حتمتها العوامل الاقتصادية السائدة فيه، والأمر كذلك في المجتمع الزراعي، والصناعي، وما بعد الصناعي.

الاتجاه العقلي: يرى أصحاب هذا الاتجاه أن العقل مصدر الأخلاق، فهو الذي يحدد سبل إدراكها ويكشف عن غاياتها، وفي العصور الحديثة يعد "ديكارت وكانط" من أبرز رواد هذا الاتجاه، حيث يرى "كانط" أن الأخلاق تصدر عن العقل الكلي الكوني المتمثل في مطلق الواجب ومتطلباته العليا، فالعقل العملي يشكل وفقاً له مصدر القيمة الأخلاقية(وطفة، 13، 115). لأن أحكامه بدهية وموثوقة غير معتمدة على استدلال خارجي.

الاتجاه النفسي: يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأخلاق تصدر عن البنية النفسية للإنسان، وهي متأصلة في هذه البنية بما تنطوي عليه من تفاعلات وديناميات سيكولوجية، ومن أبرز أصحاب هذا التيار "فرويد" زعيم مدرسة التحليل النفسي، الذي وظف البعد الرمزي للأساطير في تفسيره السيكولوجي لنشأة الحياة الأخلاقية وتطورها(وطفة، 13، 116). فالقيم الأخلاقية وفق فرويد ما هي إلا خداعات نفسية، وتجليات انعكاسية للعقد النفسية complex والكبت المركوز في اللاشعور نتيجة الحرمان وعدم الإشباع.

طبيعة القيم الأخلاقية:

من حيث المعيارية والوصفية: هناك من صنف الأخلاق إلى(إمام، 1988، 45):

الأخلاق المعيارية: وهذا مذهب "كانط والحدسيين"، فعلم الأخلاق عندهم هو "محاولة لوضع مبادئ عامة للسلوك البشري يسير عليها الناس في حياتهم اليومية ويتصرفون بمقتضاها". أي أنها تحدد ما ينبغي فعله.

الأخلاق الوصفية: وهذا مذهب الوضعيين أمثال "كونت، ودوركايم، وليفي بريل"، ويرون أن "الخير مجرد اصطلاح تعارف عليه الناس في زمان معين ومكان محدد، وهو يتغير بتغير هؤلاء الناس". أي أنها تصف واقعاً نسبياً معيناً.

من حيث النسبية والإطلاق: يرى "الحدسيون" أن الخيرية تخضع لقوانين عامة ومبادئ مطلقة لا يحدها زمان ولا مكان، فالمقياس ثابت لا يتغير بتغير الظروف والأحوال، أما "الغائيون" فعلى النقيض من ذلك إذ يرون أن الخير والشر والحق والباطل مجرد أفكار اصطلح عليها الناس في حدود التجارب التي يعيشونها والظروف التي تسود حياتهم(عبده، 1999، 29)، وهذا يعني أن ليس ثمة مطلق أو ثابت فيما يتعلق بالقيم الأخلاقية.

الطبيعة الإنسانية والعوامل المؤثرة في التكوين الأخلاقي:

اختلف الفلاسفة فيما يتعلق بتحديد الطبيعة الإنسانية، فمنهم من يرى أن الإنسان خيّر بطبعه، وأن الشر يتطرق إليه من وسطه المحيط، ومنهم من يرى أن الإنسان شرير بطبعه، والخير عارض غير متأصل في بنية تكوينه الفطرية، ومنهم من يرى أن الإنسان مزود باستعدادات وقابليات فطرية تمكنه من فعل الخير وإتيان الشر، وأن السياق المحيط به هو الذي ينحو به تجاه أحد الأمرين. ومن أبرز أساليب تكوين القيم ما يلي: القدوة والمحاكاة model، المران والتعويد practice، التوجيه والإرشاد guidance، الثواب والعقاب retribution.

المذاهب الفلسفية المفسرة للفعل الأخلاقي:

تباينت آراء الفلاسفة والمفكرين _ولا زالت_ حول طبيعة الفعل الأخلاقي وغايته التي يسعى إلى تحقيقها، وفيما يلي عرض لتلك النظريات وذلك على النحو التالي:

مذهب "الغائيين Consequentialist" النظر إلى الأخلاق باعتبارها وسيلة لتحقيق غاية"، ويتمثل في:

نظرية "اللذة Hedonism"، "المنفعة Utilitarianism": يعتقد أصحاب هذا الاتجاه منذ عهد "أبيقور" أن إشباع الميول والرغبات المادية هي مصدر السعادة، وقد تطورت هذه الرؤية بالتركيز على مبدأ اللذات العقلية والروحية حيث وضعوا للذة تصنيفات وحدوداً، ويمثل هذه الرؤية في العصر الحديث "بنتام"، "وجون ستيوارت مل"، "وأصحاب النزعة البرجماتية" الذين يعتقدون بأن تحقيق التوازن بين الإنسان والوسط المحيط يتم عبر إشباع الحاجات الإنسانية الضرورية، وهذا الإشباع يشكل المصدر الحقيقي لكل القيم الأخلاقية(وطفة، 2013، 117). فمذهب المنفعة العامة في الفلسفة الحديثة ما هو إلا تصحيح عقلي لفلسفة اللذة القديمة(إبراهيم، 1969، 138).

نظرية "السعادة Happiness": يرى أصحاب هذه النظرية أن السعادة لا اللذة هي الخير الأقصى، فالأصل في اللذة أنها مرتبطة بمنطقة ما من مناطق الجسم، في حين أن السعادة حالة نفسية تستوعب كيان الإنسان كله، فالسعادة لا تصاحب نشاطاً جزئياً بعينه، بل هي تقترن بكل مظاهر النشاط البشري، فهي لا تنسب إلا إلى حياة بأكملها(عبده، 1999، 54-55).

مذهب الحدسيين"اعتبار الأخلاق غاية في ذاتها لا وسيلة"، ويتمثل في:

نظرية "الواجب deontological": تتمثل هذه النظرية في فلسفة "كانط" الأخلاقية والتي تحكم على الفعل الخلقي في ذاته لا بالنظر إلى آثاره ونتائجه، حيث تعتبر الواجب أو الإلزام ركيزة الفعل الأخلاقي، حيث يؤكد الحدسيون أن القيم الأخلاقية يدركها الفرد إدراكاً مباشراً بواسطة حس خلقي فطري، وهي صواب في ذاتها، ولا يمكن البرهنة عليها منطقياً ولا بالتجربة الحسية، ولا تستند في تقريرها على مصدر خارجي(ريان، 1985، 9). لأنها محض انبثاق عقلي يتسم بالشمولية التشريعية.

علاقة القيم الأخلاقية بالتربية:

التربية ليست مجرد ممارسات أو مهارات ساذجة، بل هي بناء فكري ينطلق من أعمق القضايا الفكرية والوجودية للإنسان والإنسانية، وأكثرها شمولاً، ويتجلى هذا البناء في صورة فكرية ذات طابع فلسفي يتقدم على غيره في توجيه مسار الحياة التربوية والإنسانية برمتها(عمرو، 2012، 104). فالتربية "تجعل من الأخلاق مناط عملها الرئيس، بل لقد كان يرادف بينها من قبل وبين الأخلاق، ومن ثم كانت تسمى أحياناً بـ"التهذيب" أو "التأديب" على أساس أن التربية مجالها هو الأخلاق"(علي، 1982، 18). ويتضح من ذلك أن العلاقة بين القيم والتربية علاقة قوية، فالتربية تسعى لغرس القيم في نفوس الناشئة، أما القيم فتؤثر في التربية باعتبارها أحكاماً ومعايير وضوابط وأطر حياة توجه العملية التربوية، فبدون التربية يصعب غرس القيم وتصبح التربية عقيمة غير ذات فائدة(المخزنجي، 1993، 93). وبدون القيم لا يمكن صياغة وتأسيس بناء تربوي فاعل ومتماسك.

ثانياً/ الاتجاه الإنسانوي "الأهداف والمرتكزات الفكرية"

يشير قاموس "Merriam–Webster" إلى أن مصطلح الإنسانوية "Humanism" يعبر في الاستعمال المعاصر عن: "عقيدة، أو موقف، أو أسلوب حياة متمركز حول الاهتمامات والقيم الإنسانية خاصة، فهي فلسفة ترفض ما وراء الطبيعة، وتؤكد كرامة الفرد وقيمته وقدرته على تحقيق ذاته بواسطة العقل"(Merriam–Webster Dictionary). وبذلك تحول المفهوم من كونه رؤية رافضة لتسلط الكنيسة ومحاربتها للكشوف العلمية الجديدة، إلى كونه توجهاً فكرياً مناهضاً للدين بصورة عامة بدافع الاستغناء، حيث يرى أن العقل البشري بلغ مرحلة الرشد ولم يعد بحاجة إلى توجيهات السماء، وهذه الدلالة المعاصرة للمصطلح تكاد تكون _أو هي كذلك بالفعل_ محل إجماع بين كافة القواميس الأوروبية عامة والإنجليزية على وجه الخصوص. ويعتمد الاتجاه الإنسانوي الغربي على جذور تاريخية متعددة ومتنوعة أسهمت في تشكيل ملامحه الفكرية العامة، إذ يكاد أن يكون متمثلاً ضمن أحد أجزاء التاريخ الفلسفي الغربي عامة عبر حقبه الطويلة المتعاقبة، لأن الإنسانوية كإطار فلسفي تعتمد المدى الانتقائي extent be eclectic، الأمر الذي

أكسب هذا التيار حضوراً ما عبر التاريخ الفلسفي الممتد، وبشكل عام أدخلت الإنسانوية ضمن إطارها التاريخي كل الآراء والأفكار التي تنتهج مبدأ اعتماد البشر على أنفسهم فقط فيما يتعلق بتقريراتهم الحياتية عامة والأخلاقية على وجه الخصوص، والنفي القاطع أو مجرد التشكك حيال كافة القضايا المتعلقة بوجود خالق ومسير لهذا الكون "supernatural".

سمات الاتجاه الإنسانوي:

من أبرز السمات المميزة للاتجاه الإنسانوي الغربي المعاصر ما يلي:

المادية: Materialism تستعمل المادية بإطلاقات شتى، ويراد بها وفق الاصطلاح الفلسفي الغربي إنكار الوجود غير المادي أو على أقل تقدير تهميشه أو إهماله، وأنها أولية والعقل والوعي ثانوي منبثق عنها(مجموعة مؤلفين، د.ت، 429). وقد طغت المادية بشكل كبير حتى صارت طابعاً عاماً للفكر الغربي المعاصر على اختلاف توجهاته، وباتت المنجزات الحضارية والثقافية والروحية تدور كلها في فلك المادة وتتشكل وفق رؤيتها.

المركزية الغربية: Europe centrism احتكرت المركزية الغربية فكر النزعة الإنسانية لقرون عديدة، بل ونحتت مفهوماً للإنسان تمّ تسويقه عبر العالم، ظناً أنه لا إنسانية إلا في ظل الشرط الأوروبي، مع أنّ هذه الإنسانية المستعلية أحياناً خلفت وراءها تاريخاً استعمارياً وسجلاً حربياً عالمياً أزهق الأرواح، واستنزف الثروات، وقسم الحدود، وخرب الأوطان(موران، 2007، 25-38). فالعقلية الغربية _كانت ولا زالت_ أسيرة لوثة فكرية "stupidity" مستعلية بفكرة تفوق الرجل الأبيض، وهي فكرة عنصرية تهميشية لها أصولها الإغريقية في الفلسفة القديمة، ولم تستطع أوروبا التخلص من هذه اللوثة حتى الآن.

النسبية: Relativity تمثل النسبية أحد أبرز السمات والركائز المحورية في الثقافة الغربية المعاصرة، والمقصود بها أن المعتقدات والقيم تتغير بحسب المصالح الذاتية للإنسان، فالإنسان معيار كل شيء، ونتج عن ذلك ازدواجية المعايير واختلال العدالة وفقدان الثقة، يقول كونت: "إن قيام الأخلاق العلمية الغربية يتأدى بنا إلى اعتبار مبادئ الأخلاق نسبية متغيرة"(الحنفي، 2000، 124).

النزعة الإلحادية: Atheism يتخذ الاتجاه الإنسانوي من الدين عدواً ينبغي إقصاؤه ومحاربته، فهو منبع كل شر وأسّ التخلف والرجعية والجهل، فمن ركائزه التي يؤمن بها أنه "لن يتحقق التقدم إلا برفض الدين ورجاله قلباً وقالباً، وتحرير الإنسان من كل القيود"(عبد الحفيظ، 2006، 14).

العلموية: Scientism يغالي الاتجاه الإنسانوي من قيمة المنهج العلمي باعتباره الشارح والمفسر الوحيد لكل أحداث الكون، والمرجع النهائي الذي ينبغي التحاكم إليه في كل الشؤون والتصورات المتعلقة بالكون والإنسان(زرارقة، 2005، 109). حيث "يعتقد الإنسانيون أن الدليل الوحيد الموثوق به لادعاءات الحقيقة هو الدليل التجريبي empirical... ويتعين علينا أخذ بعض المعرفة اعتماداً على الثقة"(Mason, n.d, 15)، ورغم استشراء العلموية في الوسط الإنسانوي، إلا أن هناك أصوات من داخل التيار ترى أن العلم التجريبي له حد معرفي معين يقف عنده، يقول

الإنسانوي "بريندان لارفور" Brendan Larvor: "أعتقد أننا يجب أن نعترف بوجود أسئلة لا يستطيع العلم أن يقدم إجابات لها"(Copson, 2015, 68).

الكوكبية: planetary تقوم فكرة الإنسانية على الاكتفاء برابط وحدة الأصل الإنساني، والاشتراك في الصفات العامة التي يختص بها هذا النوع، مع نبذ المذاهب والعقائد أو الترفُّع عنها، والاستعلاء عليها بنزعة إنسانية عالمية(الميداني، 1991، 276). فالبشرية كافة مدعوة للانخراط في المشروع الإنسانوي، باعتباره الهوية الجامعة للناس أجمعين.

العقلانية: Rationality يغالي هذا التيار من قيمة العقل وقدرته على توجيه مسار الحياة دون حاجة إلى معونة خارجية من قبل الله أو الوحي، فالعقل هو سيد نفسه ومقرر تشريعاته، فقد ولى الزمن الذي كان العقل فيه تابعاً بعدما بلغ سن الرشد باعتماده على العلم في تحقيق الإنجازات الضخمة في المجال الطبيعي والنفسي.

الفردانية: Individualism يؤكد هذا التيار قيمة الفرد ومكانته الذاتية؛ خاصة حينما يتعلق الأمر بالنظر في قضية الألوهية، فـ"ما يجل الإنسان ويرفعه، إنما هو ما يمتلكه بطبيعته، لا شيء يمنحه من الخارج، إذ لا يكفي أن نقول إن الإنسان مجرد مستودع، وبأنه كائن ينتفع بالخلاص"(بيري، 1961، 42). حيث أصبح الإنسان وليس الإله هو المصدر المطلق المخصص بشكل واع للخير والقوة في الكون.

أهداف الاتجاه الإنسانوي:

تؤمن الإنسانوية أن بإمكان الإنسان تحقيق ذاته وقضاء حياة ثرية ذات معنى دون حاجة إلى وجود إله، وتؤكد أن الأديان خرافة بشرية ترسخ التعصب والشرور بين الناس وتصرفهم عن الاستمتاع بما في أيديهم في سبيل حياة ثانية لن تأتي أبداً، لذلك تتخذ موقفاً يتعارض مع الدين أشد التعارض، وتعمل على تقويضه عبر ثلاثة أبعاد رئيسة، وهي:

البعد القيمي والأخلاقي: حيث بإمكان الإنسان أن يؤسس نظامه القيمي الأخلاقي بصورة جيدة ومستقلة تماماً عن أية رؤية دينية أو تقريرات إلهية تُفرض عليه من الخارج.

البعد الحقوقي والقانوني: تسعى الإنسانوية إلى ترسيخ مبدأ الحقوق المدنية والكرامة الذاتية العامة، وتأكيد الحرية المطلقة من كافة القيود إلا من إطار المسؤولية الاجتماعية.

البعد الفكري والفلسفي: حيث يتم بناء ومناقشة التصورات والقضايا عبر منهجين: الأول، دفاعي يسعى إلى ترسيخ الرؤى الإنسانوية وتبرير وجودها وامتثالها، والثاني، هجومي يستهدف تقويض الرؤى الدينية وإثبات زيفها.

الركائزوالمنطلقات الفكرية:

في توجيه حديث للمنطلقات الإنسانوية أشار ستيفن لو "Stephen Law" إلى أن أغلب الإنسانويين المعاصرين _على اختلاف توجهاتهم_ يتفقون على الأرجح على سبعة بنود تشكل المنطلقات المرجعية الأساسية لهم، وهي(لو، 2016، 9-10):

- يؤمن الإنسانويون أن العلم، والعقل هما أداتا الوصول للمعرفة في كافة مناحي الحياة.
- الإنسانويون إما ملحدون وإما على الأقل ينتهجون مذهب اللاأدرية.
- يؤمن الإنسانويون أن هذه الحياة هي الحياة الوحيدة لنا؛ ولا شيء آخر.
- تنطوي الإنسانوية على إيمان شديد بوجود وأهمية القيمة الأخلاقية، وهي تستمد عن طريق دراسة الطبيعة الفعلية للبشر وما يساعدهم على الازدهار في هذه الحياة فقط.
- يؤكِّد الإنسانويون على استقلالنا الأخلاقي الفردي؛ فمن مسئوليتنا كأفراد أن نُصدر أحكامَنا الأخلاقية الخاصة دون الاعتماد على مصدر خارجي.
- يؤمن الإنسانويون أنه يمكن أن يكون لحياتنا معنًى بدون وجود إله.
- الإنسانويون علمانيون؛ بمعنى أنهم يفضلون مجتمعًا ديمقراطيًا مفتوحًا تتخذ فيه الدولة موقفًا حياديًا فيما يتعلَّق بالدين.

ثالثاً: إجراءات الدراسة التحليلية النقدية ونتائجها:

أولاً: إجراءات الدراسة التحليلية النقدية:

تمثلت الإجراءات المتبعة في الدراسة الراهنة فيما يلي:

منهج الدراسة:

اعتمدت منهجية التحليل والنقد في هذا الجانب من الدراسة على ما تقرر سلفاً من الاعتماد على منهج التحليل الفلسفي، والذي يتمثل تطبيقه في عملية تفكيك الموضوع المراد دراسته لعناصر بسيطة أولية، ثم عملية نقد وتقويم للمعلومات والبيانات المطروحة، وفي النهاية تأتي مرحلة التركيب أو الاستنتاج والخروج بمفاهيم وأحكام واضحة، فالمنهج الفلسفي يعتمد على إجراء استقصاء نقدي قائم على الاستقراء الإقصائي أي نبذ واستبعاد exclusion التفسيرات الواهية. وتطبيق هذا الاستبعاد فيما يتعلق بالتناول النقدي لفلسفة الإنسانويين الأخلاقية في الدراسة الراهنة محكوم بمعيارين، الأول: معيار الكفاية التنظيرية لهذا الطرح الإنسانوي "استناداً للتقريرات النظرية المقررة في هذا الباب من البحث"، والثاني: معيار الاتساق وعدم التناقض، أي عرض طرح مترابط بشكل منظم ومعقول يستند إلى حجة الاستدلال الفلسفي والمنطق السليم دون أن يتعارض مع تقريرات التوجه الفلسفي العام للإنسانويين حيال الكون والحياة والإنسان.

مجتمع الدراسة والعينة:

شمل المجتمع الأصلي للدراسة كافة المؤلفات والمواثيق المعبرة عن فلسفة الاتجاه الإنسانوي، والتي صدرت خلال الفترة من إعلان البيان الإنسانوي الأول عام (1933) وحتى وقت إجراء الدراسة الراهنة، أما العينة الفعلية فقد تم اختيارها بالطريقة العمدية، وذلك اعتماداً على المحتوى المرتبط بموضوع الدراسة الراهنة، حيث تم الرجوع إلى (مجموعة من الكتب، والوثائق، والأدلة الإنسانوية بعضها مؤلف من قبل عدة مؤلفين، وبحث واحد)، وذلك للكشف عن واقع الفلسفة الإنسانوية فيما يتعلق بالبعد القيمي الأخلاقي.

منهجية التحليل والنقد:

تمثلت منهجية التحليل والنقد في الخطوات الإجرائية التالية:

أ-تجزئة الموضوع إلى وحدات لتسهيل الدراسة: حيث تم عرض فلسفة الإنسانويين في صورة مجموعة من المحاور، كل محور يتعلق بفكرة معينة تعبر عن أحد جزئيات الفلسفة الأخلاقية للإنسانويين، وفي بداية كل محور تم حشد الآراء الإنسانوية المعبرة عن فلسفتهم حيال القضية التي يتناولها المحور.

ب-استخدام الشرح والنقد لتوضيح الفكرة المدروسة: بعد عرض الأفكار المرتبطة بمحل النقاش حسب ورودها في السياق الأصلي "أي في صورة اقتباس" ما أمكن ذلك، يتم بيان الفكرة الرئيسة التي تتضمنها وأبعادها الدلالية وهدفها الذي تتغياه، إن لم تكن واضحة في نفسها، ثم مناقشة الأفكار التي تتناولها برؤية تحليلية نقدية توضح مدى تماسك الأفكار واتساقها المنطقي ونجاحها أو إخفاقها في تحقيق مقصودها، وقد تم الاقتصار فقط على مناقشة القضايا المتعلقة بموضوع الدراسة، وذلك حفاظاً على الوحدة الموضوعية للدراسة ولتجنب عوامل التشتت.

ج-استخراج نتائج واضحة: بمعنى صياغة الاستنتاج الذي يتم التوصل إليه في ختام كل محور أو جزئية من الفصل، وهذا الاستنتاج يعبر عن خلاصة للبنود التي توصلت إليها الدراسة التحليلة النقدية، مع تدعيم وجهة نظر الدراسة بالشواهد والمصادر المرجعية التوصيفية.

د-عرض النتائج العامة المستخلصة من الدراسة التحليلية النقدية.

ثانياً: واقع القيم الأخلاقية من منظور الاتجاه الإنسانوي الغربي المعاصر"عرض ونقد"

إمكانية تأسيس الأخلاق بدون إله:

تتخذ الفلسفة الأخلاقية الإنسانوية موقفاً رافضاً ومناهضاً لفكرة التدين السماوي بكافة أبعاده وتقريراته، جاعلة من موقفها ذاك نقطة ارتكاز محوري تؤسس عليه كافة القضايا المرتبطة بالبعد القيمي الأخلاقي الذي تسعى إلى صوغه وتعميمه كبديل إنسانوي للأخلاقية في مقابل إطار التخلق القائم على فكرة الألوهية وعقيدة الجزاء الأخروي، فالمتدينون مستمرون في اجترار خرافة mythأن الأخلاق مرتبطة بالدين على نحو ضروري(Free Inquiry, 1989, 2.9). في حين أنه "في كل من العلم والأخلاق، المعرفة ممكنة بدون اتخاذ أي افتراضات قائمة على الإيمان"(Free Inquiry, 1989, 36).

أما الحجة الإنسانوية الداعمة لإمكانية التأسيس الأخلاقي بعيداً عن الدين الأخروي فتتمثل في أن هناك "عدداً لا يحصى من الرجال والنساء المتنورين قد تخلوا عن أوهام الدين الاهوتي وعاشوا في حياة أخلاقية... قد استلهموا المثل النبيلة والقيم الأخلاقية باستعمال معرفتهم بالخير والشر، استطاعوا أن يحصلوا على تقدير عميق لحياة خيرة، بضمن ذلك إحساس بالجماعة مع البشر الآخرين، وقد نذروا أنفسهم لخدمة المجتمع والأعمال الخيرية والعدالة"(كيرتز، 2012، 6).

وهذه الأفكار الإنسانوية تنطوي على مغالطة منهجية؛ لأن التأكيد على البعد المادي فقط كإطار أحادي للوجود تفسر في ضوئه كافة الظواهر والمعطيات الكونية والإنسانية، ونفي وجود الله باعتباره بعداً مجاوزاً لهذا الواقع المحسوس غير خاضع لخواصه وقوانينه -التأكيد على ذلك- يستلزم بالضرورة نفي الأخلاق الموضوعية أيضاً واعتبارها وهماً وزيفاً باطلاً ينبغي التخلص منه وتنحيته جانباً سواء بسواء، فإذا كانت المادية هي المعطَى أو المكون الوحيد المؤسِّس لانطلاقة الكون وتنوع موجوداته دون أي تدخل خارجي مفارق لمادية الكون؛ فلن نحصل أبداً على المعنى المتسامي، لا خير ولا شر، لا صواب ولا خطأ، لا حق ولا باطل، فلوازم هذه الوضعية كما يقول الفيلسوف الملحد مايكل روس تقتضي أن تكون "الأخلاق الموضوعية مجرد وهم"(Gordon, 2014, 862). فإنكار وجود الله يستلزم إنكار الأخلاق.

تلك هي النتيجة المنطقية والمحصلة الحتمية المترتبة على هذا التأكيد أدرك المنكرون ذلك أم لم يدركوا؛ يقول الفيلسوف الملحد سارتر: "إنه من قمة الإحراج أن يفترض الوجودي أن الله غير موجود، لأنه بعدم وجوده لا يمكن العثور على قيم في عالم واضح"(سارتر، 1962، 77)؛ ذلك لأن القيم الأخلاقية تعبر عن سياقات سامية قائمة على الوعي المدرِك، وهي بذلك مجاوزة للبعد المادي، غير مشتقة منه ولا تفسر في ضوئه، فالمادية محكومة بسنن وقوانين ميكانيكية، وتعمل وفق آلية سببية جبرية لا تملك ضمن خواصها الفاعلة إرادةً ولا وعياً مدرِكاً لا بذاتها ولا بما حولها من وسط محيط، ولا تتصف آثارها الناتجة عن تفاعلاتها بأية سمة أخلاقية إطلاقاً؛ إذ لا تملك صلاحية الاختيار أو التمييز بين الصواب والخطأ أو الحق والباطل، فنشاطها لا يعدو أن يكون محض تفاعلات آلية تتحقق حين تتوفر الظروف والشروط الضرورية الكافية، وذلك ضمن إطار معزول تماماً عن التوصيف الأخلاقي، فكيف يتسنى لمنظومة الأخلاق المعتمدة على الإرادة الواعية، والتمييز المُدْرِك، والاختيار الحر أن تنبثق عن مثل هذه الوضعية العمياء المحكومة بقوانين صارمة لا تحيد عنها ولا تند، أو أن تفسر في ضوئها؟!. إن إسناد الأخلاق إلى هذه الوضعية العمياء يجافي مبدأ "تناسب العلة"، فالطبيعة المحضة لا يمكنها فعل ذلك، يقول سارتر: "إن عدم وجود الله معناه عدم وجود القيم المعقولة كذلك، وعدم وجود الخير بصورة مسبقة قبلية؛ لأن عدم وجود الله معناه عدم وجود وجدان كامل لامتناه يعقل ذلك الخير، وهكذا يصبح القول بوجود الخير أو بوجوب الصدق والنزاهة، قولاً لا معنى له... ولقد كتب "دستويفسكي" مرة: "إن لم يكن الله موجوداً فكل شيء مباح"، وما كتبه "دستويفسكي" هو النقطة التي تنطلق منها الوجودية، والتي نعتقد فيها أن إنكار وجود الله يعني أن كل شيء يصير فعلاً مباحاً"(سارتر، 1964، 24-25). ويتضح من ذلك أن حديث الإنسانويين عن الأخلاق يمثل مغالطة منطقية لا تتسق مع توجهات الفلسفة المادية لهذا التيار حيال الكون والوجود.

وفيما يتعلق بمحاججة وجود ملاحدة أخلاقيين، فيجدر التنويه إلى أن النقاش هنا لا يتعلق بمدى الإمكان المعرفي، والتحقق العملي بالفضيلة الأخلاقية Applide ethics في ظل إنكار وجود الله، ونفي أية صلة بينه وبين المنظومة الأخلاقية، فكما هو معلوم من الممكن أن يوجد ملحدون على قدر عال من اللياقة الأخلاقية، حيث "يوجد ملحدون على أخلاق، ولكن لا يوجد إلحاد أخلاقي"(بيجوفيتش، 1994، 175)، فهذه الجزئية لا يماري فيها أحد وليست محل إشكال، بل إنه على الجانب الآخر، يوجد أفراد ممن ينتسبون إلى الدين غير أوفياء لهذا الجانب في قليل أو كثير، لكن المؤكد أنهما _الملحد المتخلق، والمنتسب المتفلت_ متناقضان في موقفهما هذا، فكلاهما غير متسق مع إطاره الفكري ومسلكه العقدي الذي يدعي الانتساب إليه(العجيري، 2016، 60)،

فالملحد الأخلاقي متناقض لا محالة مع تقريرات ماديته، حيث يلزم نفسه بما لا يلزمه، ويضع قيوداً على سلوكه لا أساس لها ولا معنى ولا مبرر، ولا تتعلق بغاية جزائية منتظرة، فاتساقه الفكري المادي يقتضي منه انتهاج اللاأخلاقية سلوكاً متبعاً في مسيرة حياته المحدودة التي لا يتعلق بسواها، لأنه لا يملك أساساً موضوعياً يمكنه من تبرير أحكامه الأخلاقية لا من حيث القبول ولا الرفض، ولأنه بهذا المسلك الأخلاقي الذي ينتهجه يصادم قانون التطور العام القائم على الصراع والبقاء للأصلح، فأخلاقية الملحد تنم عن "إيمان عملي". وكذلك الديني المنتهك لمنظومته الأخلاقية هو أيضاً واقع في تناقض سلوكي ناتج عن خلل وقصور في إيمانه المزعوم، فلاأخلاقيته تنم عن "إلحاد عملي".

مصدر الأخلاق الإنسانوية:

يرى الإنسانويون أن الطبيعة هي مصدر كافة الأخلاق والقيم بلا استثناء، فالكون بما فيه هو نتاج لتشكلات المادة ولا شيء غير ذلك، فلا وجود لكيانات فوق مادية يحال عليها تأسيس أو تفسير أي جانب أو بعد من أبعاد الكون أو الوجود. وبناء على ذلك يلح الإنسانويون على أن الأخلاق ليست مستمدة من الدين وليست متعالية على المادة(Murry, 2008, 6)، وإنما فرضتها الطبيعة واستحسنتها التجربة(The British Humanist Association, 2013, 5). وأياً ما كان الطرح الذي يقدمه الإنسانويون كأساس ومصدر للقيم الأخلاقية، فينبغي التنويه إلى أنه إذا شكلت المادة وفقط كل المعطيات المتاحة عند انطلاقة الكون، دون أي تدخل خارجي مفارق لها، فلا يمكن الحصول _بأي من الأحوال_ على القيم الأخلاقية المتسامية، بل إن الأمر كما يقول زعيم الملاحدة _الإنسانوي ريتشارد دوكينز_: "الكون كما نشاهده يتمتع بالخصائص التي نتوقعها تماماً إن كان في حقيقته بلا تصميم، بلا غاية، بلا شر ولا خير، لا شيء سوى قسوة عمياء لا مبالية"(Dawkins & Curless, 2018, 132-133). هذا هو المتوقع، وهو النتيجة المنطقية الحتمية في ظل الالتزام الصادق بمقتضيات التوجه المادي/الطبيعي "لا شيء سوى قسوة عمياء لا مبالية"، فوجود المعنى الأخلاقي المتسامي في محض كون مادي.. يدلل وبقوة على حدوث اختراق وتدخل خارجي مفارق للمادة الكونية، إليه يرد أمر هذه المنظومة التي لا تضمن وجودها المادية الصرفة لهذا الكون. ومن هنا "فإن كل علاقة إيطيقية حقيقية _باعتبارها لا تقبل التفسير بظواهر طبيعية_ تظهر التدخل العنيف والمفاجئ لحقيقة ماورائية في هذا العالم"(نيمو، 2018، 155-156).

إنه ما من سبيل البتة للجمع أو التوفيق بين المذهب المادي/الطبيعي الصرف وبين وجود الحقيقة الأخلاقية، يقول غراي: "نحن حيوانات كباقي الحيوانات، قدرنا على الأرض هو كقدر باقي الأنواع، ومع ذلك، في مفارقة ساخرة فالكل فريد؛ لأن أحداً لم يلاحظ أن الداروينية الآن هي السند المركزي لمعتنقي المذهب الإنساني الذي يمكننا من تجاوز الطبيعة الحيوانية فينا، وأن نحكم الأرض"(Gray, 2007, 31). وهذا يوضح مقدار التناقض الحادث في الجمع بين المذهب الطبيعي والمذهب الإنساني الداعم للمشهد الأخلاقي المتسامي.

إن المادية الصرفة تبقى على حالها من حيث خصائصها الأولى التي ظهرت بها مهما تقادمت وتنوعت صور وجودها وتفاعلاتها البينية، وذلك ما لم يطرأ عليها تدخل من خارجها يضفي عليها ما لا تستطيع هي أن تمنحه لنفسها من سمات أو خواص إضافية، يقول هولمز رولزتون: "لا يوجد أي سبيل واضح يصل البيولوجيا بالأخلاق"(Rolston, 1999, 214-215)، ليس هذا فحسب، بل إن

عمل التطور ذاته مؤذن بانتكاسة أخلاقية على نحو حاد، وهذا ما يشير إليه "فرانسيسكو أيالا" في قوله: "لا يمكن تقعيد تلك المعايير من الأخلاق في التطور البيولوجي، ولكن التطور يؤهبنا للقبول بمعايير أخلاقية معينة، أعني تلك التي تتسق مع "أهداف" الانتقاء الطبيعي"(Rolston, 1995, 127)، أي أن آليات التطور وقوانينه تؤهل لقبول نوع من الأخلاقيات التي تخدم الصراع والمصالح الذاتية والبقاء للأقوى، أو بمعنى آخر تدعم كافة السلوكيات المناهضة تماماً للمشهد الأخلاقي المتسامي.

مقومات النظام الأخلاقي في الإنسانوية:

يرى الإنسانويون أنه في "الأخلاقيات الإنسانية يرتبط النظام الأخلاقي المتطور تماماً بجماعة أوسع على أساس شامل.. إنه قادر على أن يتجاوز مستوى علاقات الجماعة الصغيرة، وله المقومات التالية"(كيرتز، 2012، 187):

- هنالك إخلاص للمبادئ الأخلاقية العامة، ولا يكسرها الفرد من دونما سبب.
- هنالك شعور داخلي للعاطفة الأخلاقية وحب الخير، ورغبة في عدم الحاجة إلى إيذاء الآخرين.
- يستعمل العقل في قيادة سلوك الفرد وفقاً لشروط السعادة، وقد يتضمن هذا بعض الاعتبارات للمنفعة الذاتية، ولكنه يتضمن كذلك المنافع التي تخص جماعة الفرد.
- هنالك فضلاً عن ذلك وعي أخلاقي للحاجة إلى تمديد الاعتبارات إلى ما بعد دائرة الفرد إلى مجتمع إنساني أوسع، هذا الاهتمام الأخلاقي هو لوقاية وتحسين المجتمع العالمي والإنسانية على نحو مطلق.

وهذا الطرح الإنسانوي فيما يتعلق بمقومات النظام الأخلاقي يتناول الواقع الأخلاقي باعتباره حقيقة ماثلة دون أدنى بحث عن ضمانات أو مرتكزات وجود مثل هذا الواقع، فحديث كيرتز عن المقومات يتناول إطار البعد التطبيقي وفقط، دون إشارة إلى مقومات الإطار التنظيري الذي يشكل قاعدة التأسيس الكافلة لإطار التطبيق والممارسة العملية، فهذا التناول الإنسانوي للمقومات يكشف عن خلل منهجي ومغالطة منطقية متعلقة بتعمد تجاوز المحور الرئيس لنقاش المقومات، فمن المفترض أن يتعلق هذا النقاش بما يلي:

أولاً: تحديد المرجعية أو الجهة الضامنة لوجود مثل هذا النظام الأخلاقي "جهة المنشأ"، أو بمعنى آخر مناقشة مدى إمكانية وجود مبدأ أو قيمة أو نظام أخلاقي يتسق نظرياً مع لوازم التوجه المادي الإنسانوي.

ثانياً: ينبغي أن يتعلق نقاش المقومات ببحث المضمون أو المحتوى الرئيس للنظام الأخلاقي ذاته، وكيف اكتسب هذا البعد الموضوعي المستقل عن أحكام الناس وتصوراتهم الذاتية، وكيف ترسخ في الوعي البشري بكافة أطيافه وأعراقه.

ثالثاً: ينبغي أن يتعلق بحث المقومات بمناقشة أهلية الذات المخاطبة بالتكليف الأخلاقي، ومدى قدرتها على القيام بمسؤولياتها وتحمل تبعات قراراتها الأخلاقية، فهذه الأهلية تستدعي ابتداءً الإقرار بسيطرة الإنسان على أفعاله، وأنه يتمتع بإرادة حرة فيما يأتي ويذر من سلوكيات

وتصرفات، فهل يضمن التوجه المادي الإنسانوي وجود هذه الحرية، وهل يتسق وجودها أو الإقرار بها مع لوازمه التي تقتضي نفي هذه الإرادة.

رابعاً: ينبغي أن يتعلق نقاش المقومات ببحث قاعدة الإلزام والمسؤولية الأخلاقية، وبيان الأسس التي تنبني عليها هذه القاعدة، فثمة إشكالية متعلقة بهذا الجانب في ظل الاعتقاد الإنسانوي المادي حيال الكون والحياة، فإن تكن الأخلاق مفروضة من قبل الطبيعة واستحسنتها التجربة كما يرى الإنسانويون، فإن ذلك يوقع في إشكالية متعلقة بالإلزام الأخلاقي، هذه الإشكالية يطلق عليها "دلفينو" (حجة تعالي الأشخاص The Transcendence of Persons Argument)(دلفينو، 2017، 170-171). حيث تكون الأخلاق مفروضة من الأدنى على الأعلى، وهذا يسقط الإلزام.

خامساً: يتعلق نقاش المقومات أيضاً ببحث أساس ومعيار التمييز بين الصواب والخطأ الأخلاقي، فعلى أي أساس يتم التمييز بينهما، فإن كان ثمة معيار حقيقي لذلك فمن الذي وضعه وقام على تأطيره، وهل هو معيار موضوعي ثابت لا يتبدل، أم هو ذاتي متقلب تبعاً لأحكام الذات المدركة، وهل تضمن المادية تأسيس معيار موضوعي ثابت.

سادساً: يتعلق نقاش المقومات أيضاً ببحث قواعد التبرير الداعمة للتمسك بالنظام والوفاء بمتطلباته، وهذا التبرير ينبغي أن يكون صالحاً للتعميم على كافة أبعاد النظام ومشتملاته، فلا يصح تبرير الوفاء بالمتطلبات الأخلاقية بالنظر إلى ردة فعل الغير، كأن يوفي المرء بوعده بسداد ديونه لأنه إن خالف هذا الوعد سيمتنع الناس عن الإقراض(كيرتز، 2012، 180)؛ لأنه إن صح هذا التبرير في بعض الجوانب الأخلاقية فإنه غير صالح في جوانب أخرى، فهل يُقدِم المرء على التضحية بنفسه في سبيل غيره من أجل أنه إن لم يفعل سيمتنع الناس عن هذا التصرف الأخلاقي.

سابعاً: ينبغي أن يتعلق نقاش المقومات ببحث الغاية من وجود النظام، وهذه الغاية يجب أن تكون متسقة مع كليات التصور بشأن الوجود والحياة، وأن تكون هذه الغاية عامة وحاضرة فيما يتعلق بكافة مكونات النظام، فهل غاية النظام الأخلاقي القائمة على التسامي والتضامن والإيثار تحقق غاية المنظومة الحيوية وفق التصور الإنسانوي والقائمة على الصراع والبقاء للأقوى والأصلح.

ثامناً: ينبغي أن يتعلق نقاش المقومات أيضاً ببيان القواعد الجزائية المترتبة على كل من الامتثال والتفلت؛ لأن غياب هذا البعد الجزائي يؤدي إلى تساوي عواقب الفضيلة والرذيلة، وهذه الوضعية تعمل حتماً على تقويض نوازع الخير، واستدعاء وتقوية نوازع الشر على المستوى الفردي والجماعي، وهذا الأمر كفيل بالقضاء على المشهد الأخلاقي برمته وإن تطاول الأمد.

ويتضح من ذلك أن المقومات الحقيقية اللازمة لإرساء نظام أخلاقي راسخ ومتسق على المستوى النظري والعملي أيضاً محل إشكال كبير في التصور الإنسانوي، إذ لا تكفل العقيدة المادية/الطبيعية مثل هذه المقومات الضرورية اللازمة لصحة الزعم الإنسانوي بالقدرة على الاستقلال الأخلاقي بعيداً عن تصورات الدين الإلهي، ولأن الإنسانويين يدركون هذه الإشكالية فإنهم يعمدون في بحث المقومات إلى النظر فقط إلى بعض حيثيات الواقع التطبيقي، مع إهمال تام للبعد التنظيري الضامن لقيام هذا الواقع التطبيقي على أسس راسخة تجعله قيد النفاذ والتمثل الفاعل من قبل الأفراد والجامعات.

المسؤولية الأخلاقية عند الإنسانويين:

يرى الإنسانويون أن إحساس الإنسان بالواجب والمسؤولية الأخلاقية لا يستلزم وجود إله، ففي غيابه لن يتداعى هذا الإحساس، فالأخلاق الإنسانوية تجعل المسؤولية على البشر وحدهم فيما يتعلق بالعمل على القيم الأخلاقية وتنفيذها(The British Humanist Association, 22 ,2013)، إن مُبتدأ الإشكال في الجدل الإنسانوي حيال المسؤولية الأخلاقية يتمثل في عدم توضح الأسس الفلسفية التنظيرية التي تنبني عليها هذه المسؤولية وتُبَرَّر؛ هذه الأسس تتعلق بأسئلة من هذا النوع، لماذا علي أن ألقي بالاً بالآخرين؟ لماذا علي أن أفعل كذا ولا أفعل كذا، هل لهذه المحددات _بالفعل أو الترك_ أسس موضوعية راسخة لا يختلف حيالها أحد حتى نستطيع تمييز الصواب من الخطأ كلازمة أولية لبناء المسؤولية الأخلاقية، وبالتالي نعلم من وفى بمسؤولياته ومن قصر فيها، إن كانت ثمة أسس موضوعية راسخة فمن الذي قام على تأطيرها ومعايرتها على هذا النحو دون غيره، وإلى أية جهة مرجعية تُرَدُّ هذه المحددات الأخلاقية الموضوعية في كون يتسم بالنسبية، هل يضمن الانبثاق الدرويني الأعمى هذه الموضوعية حيال الصواب والخطأ الأخلاقي، ثم ما الغاية التي ترتجى من الوفاء بالتزامات هذه المسؤولية، وما المصير الذي يواجِه المقصرين فيها، من يُعنَى بأمر حوكمة هذه المسؤولية ومتابعتها، بدون الإجابة عن هذه الأسئلة لا يمكن بحال من الأحوال ترسيخ المسؤولية حيال الواجبات الأخلاقية في الوجدان البشري بصورة موضوعية معتمدة على الرقابة الذاتية في توجيه السلوك نحو الفضيلة وكفه عن الرذيلة، بغض النظر عن التحولات الخارجية المتقلبة في عالم الأشياء والأشخاص.

فالمسؤولية الأخلاقية بحاجة إلى تبرير في المقام الأول، هذا التبرير يمثل الجانب المعرفي المبرز للغاية والهدف، والذي يمنحها القدرة الإقناعية الدافعة إلى التبني على المستوى الوجداني، وحسن الامتثال على المستوى السلوكي العملي؛ يقول الفيلسوف الإنسانوي جوليان باجيني: لكي تقدم تعليلاً لوجوب قيامنا ببعض الأشياء، يجب أن تجعل "يجب" شرطية نوعاً ما، وأعني بهذا أن كل جملة بشكل "يجب عليك أن تفعل س" هي في الحقيقة نوع مختزل لجملة بشكل "إذا أردت ع، فيجب عليك أن تفعل س"(باجيني، 2010، 83).

كذلك تستدعي المسؤولية الأخلاقية -باعتبارها تكليفاً بالفعل أو الترك- توافر عدة شروط وانتفاء عدة موانع في شخص الذات المكلفة، يأتي في مقدمة هذه الشروط امتلاك الفاعلية والأهلية الأخلاقية، أو بمعنى آخر سيطرة الإنسان على أفعاله عبر حرية الإرادة والتصرف، غير أن التوجه المادي/الطبيعي حيال الكون لا يضمن وجود هذه الحرية، بل على العكس يستلزم نفيها، وبذلك تفقد المسؤولية معناها.

ولا معنى إطلاقاً للحديث عن المسؤولية الأخلاقية في ظل التأكيد الدائم على غياب الجهة الرقابية الكافلة للجزاء اللازم لصاينة هذه المسؤولية والحض على الوفاء بها، فإن تساوت عواقب التمسك والتفلت فالراجح حينئذ أن تقوى دوافع التفلت وتتسع في نهاية المطاف حتى تأتي على الفضيلة برمتها وإن تطاول الأمد.

والمسؤولية الأخلاقية كذلك لا تنبني إلا على قناعات راسخة حيال موضوعية الأخلاق وقيمتها المطلقة، سواء في جانبها الإيجابي المتمثل في الفضائل، أو في جانبها السلبي الماثل في الرذائل، يقول لويس: "يبدو أننا مرغمون على الإيمان بوجود معيار حقيقي للصواب والخطأ؛ وقد يكون الناس أحياناً مخطئين بشأنهما تماماً كما يغلط بعضهم في حساب الجمع، غير أنهما ليسا مجرد

مسألة ذوق ورأي، مثلهما مثل جدول الضرب"(لويس، 2006، 24). فالواقع أنه توجد إلزامات أخلاقية موضوعية، لا يمكن تفسير هذه الإلزامات بأسباب طبيعية، ولا يمكن تفسير هذه الإلزامات بعوامل اجتماعية، لا يمكن تفسير الإلزامات الأخلاقية الموضوعية بغير مصدر شخصي، وعليه فإن الإلزام الأخلاقي لا بد أن يكون له مصدر شخصي له سلطان إقامته(Hindson, 2008, 239). فمثل هذه الموضوعية لا تستمد إطلاقاً إلا من جهة موضوعية مطلقة، ولا يمكن تقعيدها في السياق المادي المحض.

الأخلاق وحرية الإرادة:

الخطاب الإنسانوي متضارب حيال التقريرات المتعلقة بالإرادة الحرة، فالبعض يثبت ويؤكد حرية الإنسان في تصرفاته، يقول كيرتز: "إن الحرية الأخلاقية موجودة لدرجة أنها لا تطاق، والكثيرون يذعنون للعادات أو السلطة كي يقرر الآخرون بدلاً عنهم"(كيرتز، 2012، 48-49). بينما يرى البعض أن الإرادة الحرة مجرد وهم، وأن خياراتنا محكومة بتقريرات سابقة خارجة عنا، يقول سام هارس في كتابه "الإرادة الحرة": "اختياراتي مهمة، وهناك طرق لاتخاذ قرارات أكثر حكمة، لكنني لا أستطيع أن أختار ما أريد اختياره، وإذا ظهر أنني قادر على ذلك؛ كالعودة مثلاً إلى الوراء لاتخاذ أحد قرارين، فإنني لا أختار ما أختار أن أختاره؛ إنه تسلسل يفضي بنا دوماً إلى الظلام"(Harris, 2012, 39).

إن القول بامتلاك الإنسان إرادة حرة _فيما يأتي ويذر من تصرفات_ يوقع الخطاب الإنسانوي في مأزق شديد، وفي تناقض منهجي يتنافى تماماً مع لوازم ومقتضيات التصور المادي الذي يتبناه حيال نشأة الكون وانبثاق الحياة، فالمادة الكونية خاضعة لقوانين حتمية صارمة تحكمها وتسيطر عليها بشكل تام دون أدنى فكاك، فهي دون تدخل خارجي تظل منفعلة ومستلَبة تماماً من قبل تلك القوانين، إذ لا تملك مؤهلات "ذاتية" تمكنها من خرق تلك القوانين دون وجود مؤثر خارجي ينقلها من حالة إلى أخرى، وإذا كان الإنسان نتاج التشكل التلقائي لهذه المادة؛ فإنه حينئذ خاضع لتلك الحتمية الجبرية السائدة في الكون، ولا شيء غير ذلك يمكن أن يتصور في حقه، فالاتساق المادي يقتضي حتمية أننا "جميعاً نتكون من ذرات جامدة تتبع واقعاً آنياً، وقوانيننا محددة لو تكررت مليارات المرات لتكررت نفس ردود أفعالها أو سلوكياتها معها بغير تغيير في نفس الظروف"(حسن، 2015، 483)، وبالتالي تصبح الإرادة الإنسانية مستحيلة وغير ممكنة.

لعل الاتساق المنهجي للتوجه المادي يقتضي التسليم بالرأي الآخر القائل بأن الإرادة الإنسانية مجرد وهم، إذ يبدو أنه قد تلافى الوقوع في الإشكال المنهجي السابق، لكنه في الحقيقة لم يفعل ذلك إلا بالوقوع في تناقض آخر يفضي إلى سيل من الإشكالات الكبرى العصية جداً، أما التناقض فيتعلق بالاستحالة العملية، فقد يقبل البعض بهذا الرأي على مستوى النظر المجرد، لكن على مستوى التطبيق العملي يستحيل قبول هذا الرأي أو التزام لوازمه حتى من قبل أتباعه؛ لأنه يفضي إلى عبثية تامة وانهيار كامل للحياة برمتها؛ فثمة إشكالات كبرى تنتج عن التزام هذا التوجه، والتي من أبرزها ما يلي:

الإشكال الأخلاقي: لا معنى إطلاقاً للحديث عن خير وشر، أو صواب وخطأ، أو فضيلة ورذيلة، أو مدح وذم، إن كان السلوك البشري خاضعاً لحتمية جبرية لا يملك عنها فكاكاً، فالتزام هذا الرأي يفضي إلى انهيار الأخلاق واستحالتها.

الإشكال القانوني: في ظل هذا الاعتقاد تبطل القاعدة الجزائية _المدنية وغير المدنية_ وتنحل تماماً، فلا معنى إطلاقاً للمسؤولية القانونية، ولا لإرساء تقريرات جزائية متعلقة بالثواب والعقاب، أو إنشاء مؤسسات إصلاحية أو عقابية.

الإشكال التربوي: ينعقد العمل التربوي _بكافة مؤسساته_ على قاعدة إمكان تعديل السلوك وتوجيهه نحو الأفضل، وهذا يقتضي وجود سيطرة للذات على أفعالها، غير أنه في ظل هذا التوجه المادي يصبح من العبث غير المبرر إنشاء مثل هذه المؤسسات وإنفاق الأموال عليها، طالما أن الإنسان لا يملك السيطرة على تصرفاته.

الإشكال الفكري: لا يقوم التفكير الإنساني إلا على قاعدة من الحرية الضامنة لوجوده _على الأقل في البعد الداخلي المتعلق بالذات المفكرة_ وبما أن الإنسان لا يملك إرادة حرة فإن حياته الفكرية مجرد وهم لا أساس له؛ لأنه حينئذ مجبر على التفكير فيما يفكر، وبذلك يفقد الفكر قيمته؛ لأنه صادر عن وضعية لا إرادية.

الإشكال النفسي: على مستوى الشعور الباطني للنفس الإنسانية ثمة شعور قوي بامتلاك الإرادة وحرية التصرف، وهذا الشعور لا يمكن محوه ببساطة بمجرد الاعتقاد بأن الإرادة مجرد وهم لا أساس له؛ لأن تصرفات هؤلاء المنكرين أنفسهم تنبئ بعمق وأصالة هذا الشعور، كما أن التزامهم آثاره في حياتهم العملية يكذب دعواهم تلك، فهم مضطرون إلى الإقرار العملي بوجود الإرادة الحرة وإن عارضوا ذلك على مستوى النظر.

الإشكال الثقافي والحضاري: في ظل هذه العقيدة الجبرية تنعدم القيمة الحقيقية لكافة المنجزات الثقافية والحضارية، كما أنه لا يصح اعتماد مثل هذه المنجزات كمؤشرات تصنيفية تميز بين الأمم والشعوب، فلا معنى إطلاقاً لوصف أمة ما بالتفوق أو التقدم، وأخرى بالتخلف أو التأخر؛ لأن الجميع مجبرون على وضعياتهم.

الأخلاق والبواعث الداخلية:

المشهد الأخلاقي ليس بمعزل عن بحث النوايا والبواعث الداخلية، فهذا الجانب له حضور مهم جداً في الإطار الفلسفي الأخلاقي؛ لأنه يميز بين الخبيث والطيب، بين الصالح والطالح، غير أن الإنسانويين لا يرون أهمية هذا الجانب الباعث على السلوك الأخلاقي، إذ يقررون أنه "ليست مفاهيمنا أو نوايانا _مهما كانت مهمة_ هي التي يعول عليها، بل ما يعول عليه أكثر هي الأفعال التي نقوم بها إزاء الآخرين من البشر"(كيرتز، 2012، 54).

وبذلك يُسقط الإنسانويون أهمية وقيمة البواعث الموجهة للسلوك الأخلاقي، ويركزون فقط على جانب المخرجات وما يتحقق بالفعل على أرض الواقع، وهذه الرؤية محل نظر؛ لأن البواعث الداخلية تبقى مهمة وضرورية في عملية التمييز بين السلوك الأخلاقي وغير الأخلاقي، وعليها يتعلق المدح أو الذم بغض النظر عن العواقب المتحصلة ورغم أهميتها كذلك في الحكم؛ فهب أن شخصاً ما استخدم قوته في إجبار أحد المسافرين وإكراهه على النزول من مقعده على

متن الطائرة واستولى هو عليه دون وجه حق، ثم حدث أن تحطمت الطائرة ومات كل من كانوا على متنها، فهل يمكن وصف سلوك هذا الغاصب بأنه تصرف أخلاقي أسهم في إنقاذ شخص من الموت، هل تصلح هذه العاقبة "الحسنة" والمصلحة التي تحققت هنا للبعض أساساً أو معياراً للحكم على هذا السلوك بأنه تصرف أخلاقي.

لا شك أن هذا التصرف يبقى مداناً أخلاقياً حتى وإن أسهم في تحقيق مصالح متعددة ليس لفرد واحد بل ولعدد أكبر من الفئات، حتى وإن استوعب الناس جميعاً؛ لأن الحكم الأخلاقي تعبير عن تكافل تام وتعاضد مُحْكَم بين واقع داخلي تمثله النوايا والدوافع، وآخر خارجي تمثله الوقائع الفعلية المتحققة، ولا يصح بحال الاستناد إلى أحد الواقعين مع إهمال تام للآخر.

غاية السلوك الأخلاقي وعلاقتها بمعيار الصواب والخطأ:

يؤكد الإنسانويون أن الحياة الأخلاقية الكاملة تقاس وفق الشروط الشخصية، حيث تتضمن الإحساس بالتحقق والإنجاز، والمشاركة مع العالم، والتعبير عن المواهب، أو عمل شيء مفيد ومنتج وفق شروط مثلنا الخاصة، فالقدرة على ذلك تقود إلى حياة ممتعة وخلاقة، حياة سخية ومتدفقة ومغامرة"(كيرتز، 2012، 123)، ومن هنا يتأكد أن "القيمة الجوهرية التي يسعى الإنسانيون إلى تحقيقها هي السعادة أو الرفاهية well-bein"(Free Inquiry, 1989, 27). ولذلك "يجب أن تكون أهداف الأخلاق هي رفاهية الإنسان، والسعادة، فعواقب الفعل على الرفاهية تشكل معياراً للحكم على الصواب والخطأ"(The British Humanist Association, 2013, 7.22). أو بمعنى آخر "الصواب والخطأ يجب تعريفهما من حيث رفاهية الإنسان right and wrong are to be defined in terms of human well-being"(Copson, 2015, 23).

وهذا الطرح الإنسانوي فيما يتعلق بغاية السلوك الأخلاقي محل إشكال، فمن الذي وضع هذه الغاية، وعلى ماذا استند في هذا التحديد، ومن الذي خوله مهمة هذا التحديد وطرحه كمسلمة مفروضة على الجميع، وبأي شيء تتحقق هذه الرفاهية، وهل بلوغ هذه الغاية تحققه أخلاقيات الإيثار والتضحية بالنفس، فأين ومتى يتحقق ذلك إن كانت هذه الحياة هي كل ما نملك حسب الزعم الإنسانوي. من هنا يؤكد الفيزيائي الملحد Sean Carroll أن الرفاهية لا تصلح غاية للسلوك الأخلاقي لعدة أسباب(Carroll, 2010):

-أن الناس مختلفون في تحديد المقصود بالرفاهية، وحتى لو اتفقوا فإن اتفاقهم لا يعدو مجرد رأي.

-أن هدف تحقيق أعلى قدر من الرفاهية لا يمثل هدفاً بدهياً للأخلاق، فثمة خلاف بين المذاهب الأخلاقية، كالغائيين والعواقبيين.

-أن مصالح الناس في الوصول إلى الرفاهية عرضة للتصادم، وهنا تبرز إشكالية ضبط المعيار المرجح بين المصالح المتعارضة.

إضافة إلى ذلك فإنه ما لم يكن وراء "القانون" و"المنفعة" بالمعنى العام مبدأ آخر محتم للإرادة، فإن الدافع الحقيقي لعملنا هنا هو إذن وبالضرورة "الهوى" الذي نجده لإشباع حاجاتنا الفطرية، ولا ريب أنه ليس الهوى المستعبَد للعاطفة، ولكنه هوى مستنير خاضع للعقل، ولكن ما أهمية ذلك، إذ أن المصلحة دائماً لا القانون، تظل في هذه الحالة أساس اختيارنا الخاص(دراز،

1996، 491). ومن شأن ذلك أن يقوض الأخلاق ويبطل مرجعيتها التوجيهية وحاكميتها على السلوك حين تتعارض مع رغبة النفس وهواها. أما فيما يتعلق بجعل الرفاهية معيار التمييز بين الصواب والخطأ، وإسناد مهمة تحديد الممارسات الداعمة للرفاهية وتلك التي تناقضها إلى العلم التجريبي، فإن ذلك ينطوي على عدة مغالطات إنسانوية يتمثل أبرزها فيما يلي:

-لا تصلح الرفاهية معياراً للتمييز بين الصواب والخطأ، فالقائلون بذلك لا يخرجون عن إطار التضليل والخداع اللفظي، حيث يعبرون عن الصواب بما يحقق الرفاهية دون أساس حقيقي يبرر هذا الربط بين الصواب والرفاهية.

-جعل الرفاهية معياراً للصواب والخطأ يقوض القيمة الموضوعية للأخلاق ويكرس النسبية، حيث يجعل الذات حكماً على الأخلاق تقبل منها وترفض حسب مقتضى الهوى، وليس حسب معيار حقيقي راسخ، وهذا يناقض طبيعة الجانب التطبيقي في المسلك البشري؛ فالجميع عملياً يصدرون أحكاماً قطعية حيال الصواب والخطأ، كما ينافي السلطة المرجعية للأخلاق وحاكميتها على السلوك، وأيضاً يقوض سلطة الإنكار على المخالف، إذ بوسعه القول إن كافة تصرفاته _مهما بدت شنيعة_ تسهم في تحقيق رفاهيته.

-اعتماد معيار التفرقة بين الصواب والخطأ على التقدير الذاتي يقوض الضرورة الإلزامية التي يحملها القانون الأخلاقي ويفرضها على النفس، فبوسع المتفلت من القانون أن يقول إنني غير راغب في تحقيق هذه الرفاهية وبالتالي لا يلزمني الانصياع.

-تحقق الرفاهية لا يعبر عن بعد أخلاقي، بل عن صورة الحياة السعيدة مقابل البائسة، "وليس هناك أي سبب للمساواة بين "السرور والبؤس" و"الخير والشر"، وخصوصاً ضمن النظرة الإلحادية. وهكذا فلا يوجد مطلقاً أي سبب في الرؤية الإلحادية يدفع للاعتقاد بأن ازدهار الكائنات الواعية هو خير موضوعي"(The God Debate II: Harris vs. Craig). وبالتالي لا تصلح الرفاهية معياراً للتمييز الأخلاقي.

-اعتماد الرفاهية كمعيار حاكم في التمييز الأخلاقي من شأنه أن يرسخ العدمية الأخلاقية، وتتمثل العدمية في أن نفكر وأن نتصرف وكأن لا شيء في إنجازات الوعي البشري الثمينة يمتلك قيمة ما وراء فائدته الوظيفية، أي قدرته على خدمة الحياة الفردية أو المجتمعية على المدى القريب أو المتوسط، فالخير وفق العدمية ليس أكثر من معيار ضروري للتعاون الإنساني الفعال الذي لا غنى عنه في ذاته من أجل استمرار الحياة، ولكن من غير أن يكون لهذا المعيار مكانة مخصوصة، فالحقيقة والجمال والخير لا تمتلك في ذاتها أي تعال يبرر توجيهها لوجودنا(نيمو، 2018، 153-154).

-ثمة مغالطة في جعل الرفاهية معيار التمييز بين الصواب والخطأ الأخلاقي، وهي مغالطة "الحصر المخادع"؛ فإن رفاهية الإنسان قد يحققها في الفعل الأخلاقي، وقد يحققها معاكسه، وقد يحققها الفعل المحايد أخلاقياً، وبذلك يصبح السعي الإنساني برمته محض التباس لا تمتاز فيه جوانبه الأخلاقية عن غير الأخلاقية عن المحايدة.

-لابد أن يكون معيار تحديد الصواب والخطأ منطلقاً من فلسفة أخلاقية وليس من واقع أخلاقي(عبد الأعلى، 2016)، فالإنسانويون يعمدون إلى مغالطة تجاوز البعد التنظيري بالتركيز فقط على المشهد الأخلاقي كواقع ضروري يتم التعامل معه دون حاجة إلى أساس مرجعي حقيقي

يضمن ويبرر ويفسر وجود هذا الواقع في ظل العقيدة المادية، فالأمر المؤكد هو أن الإنسانوي "الملحد ليس بعاجز عن أن يكون خيراً، ولكن الإلحاد لا يدعم أي أسس فكرية للأخلاق"(بوسماحة & فرطاس، 2018، 327). وبالتالي لا يملك الإنسانويون معياراً حقيقياً صالحاً للتفرقة بين الصواب والخطأ الأخلاقي.

ويتضح من ذلك أن الأخلاق بحاجة ماسة إلى معيار موضوعي ثابت للتمييز بين الصواب والخطأ الأخلاقي، وهذه الحاجة يؤكدها الواقع العملي للبشر، فالجميع مضطرون إلى إصدار أحكام قطعية حيال الصواب والخطأ، وهذا لا يتم إلا في إطار موضوعي راسخ، غير أن الإنسانويين بحكم خلفيتهم المادية لا يملكون أساساً فكرياً لإرساء مثل هذا المعيار، لذا يعمدون إلى التعلق بالواقع العملي فقط النابع من توجههم المادي، فيقررون أن تحقيق الرفاهية هو أساس التمييز بين الصواب والخطأ، وقد تبين أن هذا المعيار غير صالح لتحقيق هذا المقصد، وبذلك يظل الإنسانويون على المستوى النظري بلا أساس حقيقي موضوعي للتفرقة بين الصواب والخطأ الأخلاقيين.

النتائج العامة للدراسة:

في ضوء ما سبق، توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

أولاً: تستنتج الدراسة أن حديث الإنسانويين عن الأخلاق يشكل مغالطة وسقطة منهجية كبرى لا تتسق أبداً مع لوازم التوجه المادي لهذا التيار، فإذا كانت المادية هي المعطَى أو المكون الوحيد المؤسِّس لانطلاقة الكون وتنوع موجوداته دون أي تدخل خارجي مفارق لمادية الكون؛ فلن نحصل أبداً على المعنى المتسامي.

ثانياً: ما يقدمه الإنسانويون من أبعاد فلسفية لتأسيس مشهد أخلاقي ملحد، هذه الفلسفة لا تستوفي الكفاية النظرية المطلوبة؛ فالإنسانويون يعلمون عجزهم عن التأصيل الفلسفي للمشهد الأخلاقي، لذا يعمدون إلى تجاهل البعد الأنطولوجي للأخلاق، حيث تدور كافة مناقشاتهم وتأطيراتهم حول البعد الأبستمولوجي فقط، وهذا الأخير ليس محل نزاع، حيث يوجد ملحدون على أخلاق لكن لا يوجد إلحاد أخلاقي.

ثالثاً: لا تصلح الطبيعة مصدراً للمنظومة الأخلاقية، فالمادية الصرفة تبقى على حالها من حيث خصائصها الأولى التي ظهرت بها مهما تقادمت وتنوعت صور وجودها وتفاعلاتها البينية.. ولا يمكن تأصيل هذه المنظومة في البيولوجيا التطورية؛ لأن آليات التطور وقوانينه تؤهل لقبول نوع من الأخلاقيات التي تخدم الصراع والمصالح الذاتية والبقاء للأقوى، أو بمعنى آخر تدعم كافة السلوكيات المناهضة تماماً للمشهد الأخلاقي المتسامي.. ولا تؤول مرجعية ذلك إلى العلم التجريبي، لأن منهجه يتعلق بما هو قائم، بخلاف الأخلاق التي تتعلق بما ينبغي أن يكون.

رابعاً: لا تكفل العقيدة المادية/الطبيعية أيًّا من المقومات الضرورية اللازمة لتأسيس مشهد أخلاقي مستقل عن الدين، ولأن الإنسانويين يدركون ذلك فإنهم يعمدون في بحث المقومات إلى النظر فقط إلى بعض حيثيات الواقع التطبيقي، مع إهمال تام للبعد التنظيري الضامن لقيام هذا الواقع التطبيقي على أسس نظرية راسخة.

خامساً: يتطلب الإلزام الأخلاقي وإرساء المسؤولية الأخلاقية عدة شروط يتمثل أبرزها في، وجود قاعدة تبريرية قوية فيما يتعلق بأوامر الفعل والترك، وضمان حرية شخصية للذات المكلفة، ووجود إطار موضوعي ثابت للواجبات الأخلاقية، ووجود قاعدة جزائية شاملة ونهائية.. كل ذلك لا تضمنه العقيدة المادية للإنسانويين.

سادساً: يستلزم المشهد الأخلاقي الإقرار بسيطرة الإنسان على أفعاله، وهذا الإقرار محل إشكال لدى الإنسانويين، فإن يكن الإنسان محض تشكل تلقائي لمادة الكون، فإن هذا يستدعي نفي الإرادة الحرة، وبذلك تبطل الأخلاق،وكافة القضايا الأخرى التي تستلزم الإقرار بحرية الإرادة.

سابعاً: الحكم الأخلاقي تعبير عن تكافل تام وتعاضد مُحْكَم بين واقع داخلي تمثله النوايا والبواعث، وآخر خارجي تمثله الوقائع الفعلية المتحققة، ولا يصح بحال الاستناد إلى أحد الواقعين مع إهمال تام للآخر.. وبذلك لا يصح الزعم الإنسانوي الخاص بالاعتماد على عواقب الفعل فقط لتقرير صوابه وخيريته.

ثامناً: لا تصلح الرفاهية غاية للسلوك الأخلاقي؛ لأن الناس مختلفون في تحديد المقصود بالرفاهية، ولأن تحقيق أعلى قدر من الرفاهية لا يمثل هدفاً بدهياً للأخلاق،كذلك فأن مصالح الناس في الوصول إلى الرفاهية عرضة للتصادم، وهنا تبرز إشكالية ضبط المعيار المرجح بين المصالح المتعارضة.

تاسعاً: لا تصلح الرفاهية معياراً للتمييز بين الصواب والخطأ الأخلاقي، فعلى المستوى النظري يظل الإنسانويون بلا أساس حقيقي موضوعي للتفرقة بين الصواب والخطأ الأخلاقيين، وهذه الوضعية كفيلة بإبطال المشهد الأخلاقي برمته، ففي غياب المعيار الموضوعي الفاصل لا يمكن لأحد أن ينكر على غيره أي تصرف مهما بدت شناعته.

عاشرا: ومن هنا يتأكد أن الأخلاق لا يمكن تأصيلها أو المحاججة عنها في ظل إنكار وجود الإله؛ لأن هذا الإنكار له ما بعده حيث يستدعي إنكار الأخلاق أيضاً، ومن يكابر في ذلك يقع في التناقض لا محالة، إما على مستوى النظر، وإما على مستوى التطبيق، أو بكليهما معاً.

توصيات الدراسة:

في ضوء ما سبق توصي الدراسة بما يلي:

- تشجيع الباحثين على إجراء مزيد من البحوث والدراسات الداعمة للاتجاه النقدي في التربية.
- الاهتمام البحثي بالمشهد الأخلاقي ببعديه النظري والتطبيقي العملي باعتباره مرجعية موجِّهة للعمل التربوي والتعليمي.
- إقامة المؤتمرات والندوات والمحاضررات التوعوية لتحصين الشباب وتبصيرهم بمغالطات الأفكار الإنسانوية الملحدة.
- ضرورة تبني استراتيجية تربوية واضحة للتعامل المؤسسي مع تلك الأفكار المهددة لهوية المجتمع.

مقترحات الدراسة:

تقترح الدراسة ما يلي:

- القيام ببحث حول الواقع التطبيقي لفلسفة الإنسانويين الأخلاقية وأثرها على المنظومة التربوية.
- وضع تصور مقترح لدور مؤسسات التربية في مواجهة التطرف الإلحادي المعاصر.
- دراسة تقويمية لدور الأزهر الشريف في التصدي لبعض الأفكار المنحرفة ومعالجتها.

المراجع:

أولاً: المراجع العربية:

إبراهيم، زكريا. (1969). المشكلة الخلقية، القاهرة: مكتبة مصر بالفجالة.

أبو سمعان، محمد عطا محمد. (2011). منزلة الإنسان ووجوده في المذاهب الفكرية المعاصرة "دراسة نقدية في ضوء الإسلام"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية_غزة.

أحمد، حنان مرزوق حسين. (2004). فاعلية برنامج لتنمية بعض القيم لأخلاقية لأطفال الشوارع، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة عين شمس.

أسبورن، روبن. (1992). الماركسية والتحليل النفسي، ترجمة: سعاد الشرقاوي، ومصطفى زيتون، القاهرة: دار المعارف.

إمام، إمام عبد الفتاح. (1988). فلسفة الأخلاق، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.

أوبير، رونيه (1982). التربية العامة، ط5، ترجمة عبدالله عبد الدائم، بيروت: دار العلم للملايين.

باجيني، جوليان. (2010). الفلسفة موضوعات مفتاحية "المعرفة_الأخلاق_ العقل_ الدين_ السياسة"، ترجمة: أديب يوسف شيش، دمشق: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر.

بوسماحة، بشير & فرطاس، إيمان. (2018). مشكلة الأخلاق في العالم الغربي والعالم الإسلامي والنظرة الواقعية الإلهية للوجود، مجلة الشهاب، مج4، ع2.

بيجوفيتش، على عزت. (1994). الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: محمد يوسف عدس، مجلة النور الكويتية، مؤسسة بافاريا للنشر والإعلام.

بيري، رالف بارتون. (1961). إنسانية الإنسان، ترجمة: سلمى الخضراء الجيوسي، بيروت: مكتبة المعارف.

تارناس، ريتشارد. (2009). آلام العقل الغربي، ترجمة: فاضل جتكر، الرياض: مكتبة العبيكان.

حسن، أحمد. (2015). أقوى براهين د. جون لينكس في تفنيد مغالطات منكري الدين، الرياض: مكتبة مؤمن قريش، مركز دلائل: سلسلة المختارات والمنتخبات1.

حلمي، مصطفى. (2004). الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، بيروت: دار الكتب العلمية.

الحنفي، عبد المنعم. (2000). المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ط3، القاهرة: مكتبة مدبولي.

دراز، محمد عبدالله. (1996). دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن، تعريب وتحقيق: عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، دار الفرقان للنشر والتوزيع.

دلفينو، روبرت أ. (2017). إخفاق النظام الأخلاقي للإلحاد: العلموية لا تنتج المعنى المتسامي، مجلة الاستغراب، س3، ع7.

دوز، كريمة. (2016). *الأخلاق بين الأديان السماوية والفلسفة الغربية " دراسة وصفية تحليلية"* ، الإسماعيلية: دار الكتاب للنشر والتوزيع.

ريان، محمد هاشم خليل. (1985). القيم بين الإسلام والنظريات الوضعية، *هدى الإسلام*، مج29، ع8.

زرارقة، عطاء الله. (2005). صيغ النزعة الإنسانية وتطوراتها، *دراسات*، ع2، جامعة عمار ثليجي بالأغواط، الجزائر.

سارتر، جان بول (1962). الشيطان والإله الطيب، ط2، ترجمة: غياث حجار، بيروت: دار الاتحاد.

ـــــــ (1964). الوجودية مذهب إنساني، ترجمة: عبد المنعم الحنفي، القاهرة: الدار المصرية للنشر والتوزيع.

سبينوزا، باروخ. (2020). رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة: حسن حنفي، المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي.

عبد الحفيظ، محمد. (2006). الفلسفة والنزعة الإنسانية"الفكر البرجماتي نموذجا"، الإسكندرية: دار الوفاء.

عبده، مصطفى. (1999). فلسفة الأخلاق، ط2، القاهرة: مكتبة مدبولي.

العجيري، عبد الله بن صالح. (2016). شموع النهار: إطلالة على الجدل الديني الإلحادي المعاصر في مسألة الوجود الإلهي، المملكة العربية السعودية: الدار العربية للطباعة والنشر، لندن: مركز تكوين للدراسات والأبحاث.

علي، سعيد إسماعيل. (1982). دراسات في التربية الإسلامية، القاهرة: عالم الكتب.

قاسم، أحمد فتحي محمد. (2018). خاصية الانسانية في التربية الإسلامية والتربية الغربية: دراسة مقارنة، *مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات التربوية والنفسية*، مج7، ع22.

كيرتز، بول. (2012). الفاكهة المحرمة "أخلاقيات الإنسانية"، ترجمة: ضياء السومري، بغداد: منشورات الجمل.

لو، ستيفن. (2016). الإنسانوية_مقدمة قصيرة جداً، ترجمة: ضياء وراد، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2016.

لويس، سي أس. (2006). المسيحية المجردة، ترجمة: سعيد ف. باز، عمان، الأردن: أفيبر للطباعة المتخصصة والنشر.

مجموعة مؤلفين. (د.ت). الموسوعة الفلسفية، بإشراف: م. روزنتال، ب. يودين، ترجمة: سمير كرم، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.

المخزنجي، السيد أحمد. (1993). تنمية القيم التربوية والنفسية للأبناء، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية.

موران، إدغار. (2007). ثقافة أوروبا وبربريتها، ترجمة: محمد الهلالي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.

الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة. (1991). كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، ط2، دمشق: دار القلم.

نيمو، فيليب. (2018). الموت الرحيم للإلحاد المعاصر، ترجمة: عادل بن عبدالله & عبد الحق الزموري، لبنان-بيروت: جسور للترجمة والنشر.

وطفة، علي أسعد. (2012). مرتكزات التربية الأخلاقية في عصر متغير، *مجلة الطفولة العربية*، ع49.

ـــــــ (2013). في مفهوم الأخلاق "قراءة فلسفية معاصرة"، *شؤون اجتماعية*، ع119، السنة30.

ثانياً: المراجع العربية مترجمة إلى الإنجليزية:

Abdel Hafeez, M. (2006). Philosophy and Humanism "Pragmatic Thought as a Model", Alexandria: Dar Al-Wafaa.

Abdo, M. (1999). The Philosophy of Ethics, 2nd Edition, Cairo: Madbouly Library.

Abu Samaan, M. A. (2011). The Status and Existence of Man in Contemporary Intellectual Doctrines "A Critical Study in the Light of Islam", unpublished MA thesis, Faculty of Fundamentals of Religion, Islamic University - Gaza.

Ahmed, H. M. (2004). The effectiveness of a program to develop some moral values for street children, an unpublished PhD thesis, Faculty of Education, Ain Shams University.

Al-Ajiri, A. (2016). Candles of the Day: A View of the Contemporary Atheistic Religious Controversy in the Question of Divine Existence, Kingdom of Saudi Arabia: Arab House for Printing and Publishing, London: Takween Center for Studies and Research.

Ali, S. I. (1982). Studies in Islamic Education, Cairo: The World of Books.

Al-Makhzanji, E. A. (1993). Developing the educational and psychological values of children, Cairo: The Egyptian General Book Authority, the Cultural Library.

Almidany, A. H. (1991). Zeyouf's Detectors in Contemporary Intellectual Doctrines, 2nd Edition, Damascus: Dar Al-Qalam.

Asborn, R. (1992). Marxism and Psychoanalysis, translated by: Souad Al-Sharqawi and Mustafa Zaitoun, Cairo: Dar Al-Maaref.

Baggini, J. (2010). Philosophy, Key Topics, "Knowledge - Ethics - Mind - Religion - Politics", translated by: Adib Youssef Shish, Damascus: Dar Al-Takween for authoring, translation and publishing.

begovic, A. E. (1994). Islam between East and West, translated by: Muhammad Yusuf Adas, Kuwaiti Al-Noor magazine, Bavaria Institute for Publishing and Media.

Bousamaha, B., & Fertas, I. (2018). The Problem of Ethics in the Western World and the Islamic World and the Divine Realistic View of Existence, Al-Shehab Magazine, Vol. 4, No. 2.

Delfino, R. A. (2017). The failure of the moral system of atheism: scientism does not produce transcendent meaning, Westernization Magazine, Q3, No.7.

Dose, C. (2016). Ethics between the monotheistic religions and Western philosophy, "A descriptive and analytical study", Ismailia: Dar Al-Kitab for Publishing and Distribution.

Draz, M. A. (1996). The Code of Ethics in the Qur'an: A Comparative Study of Theoretical Ethics in the Qur'an, Arabization and Investigation: Abdel-Sabour Shaheen, Al-Resala Foundation for Printing, Publishing and Distribution, Dar Al-Furqan Publishing and Distribution.

group of authors. (n.d). Philosophical Encyclopedia, supervised by: M. Rosenthal, b. Youdin, translated by: Samir Karam, Beirut: Dar Al-Tali'a for Printing and Publishing.

Hanafi, A. (2000). Comprehensive Dictionary of Philosophy Terms, 3rd Edition, Cairo: Madbouly Library.

Hassan A. (2015). Strongest evidence d. John Links in refuting the fallacies of the deniers of religion, Riyadh: Mu'min Quraish Library, Daleel Center: Anthology and Selections Series 1.

Helmy, M. (2004). Ethics among philosophers and scholars of Islam, Beirut: Dar al-Kutub al-Ilmiyya.

Hubert, R. (1982). General Education, 5th edition, translated by Abdullah Abdel-Daem, Beirut: Dar Al-Ilm for Millions.

Ibrahim, Z. (1969). Moral problem, Cairo: Egypt Library in Faggala.

Imam, I. A. (1988). Philosophy of ethics, Cairo: House of Culture for Publishing and Distribution.

Kurtz, P. (2012). Forbidden Fruit "The Ethics of Humanity", translated by: Dia Al-Sumari, Baghdad: Al-Jamal Publications.

Lewis, C. S. (2006). Mere Christianity, translated by: Said F. Baz, Amman, Jordan: Afare for Specialized Printing and Publishing.

Low, S. (2016). Humanism - a very short introduction, translated by: Diaa Warad, Cairo: Hendawi Foundation for Education and Culture, 2016

Moran, E. (2007). The culture of Europe and its barbarism, translated by: Mohamed Al-Hilali, Casablanca: Toubkal Publishing House.

Nemo, Ph. (2018). The Merciful Death of Contemporary Atheism, translated by: Adel Bin Abdullah & Abdel Haq Al-Zamouri, Lebanon-Beirut: Bridges for Translation and Publishing.

Perry, R. B. (1961). The humanity of man, translated by: Salma Al-Khadra Al-Jayousi, Beirut: Al-Maaref Library.

Qassem, A. F. (2018). The Characteristic of Humanity in Islamic Education and Western Education: A Comparative Study, Al-Quds Open University Journal for Educational and Psychological Research and Studies, Vol. 7, No. 22.

Ryan, M. H. (1985). Values between Islam and positivist theories, Huda al-Islam, Vol. 29, No. 8.

Sartre, J. P. (1962). The Devil and the Good God, 2nd Edition, translated by: Ghiath Hajjar, Beirut: Union House.

———————————— (1964). Existentialism is a human doctrine, translated by: Abdel Moneim Al-Hanafi, Cairo: The Egyptian House for Publishing and Distribution.

Spinoza, B. (2020). A Treatise on Theology and Politics, translated by: Hassan Hanafi, United Kingdom: Hindawi Foundation.

Tarnas, R. (2009). The Pains of the Western Mind, translated by: Fadel Jataker, Riyadh: Al-Obaikan Library.

Watfa, A. A. (2012). Foundations of Moral Education in a Changing Age, The Arab Childhood Journal, No. 49.

————————————. (2013). On the concept of ethics, "a contemporary philosophical reading", Social Affairs, Vol. 119, year 30.

Zaraqa, A. (2005). Forms of Humanism and its Developments, Studies, Volume 2, Ammar Tilji University, Laghouat, Algeria.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

Copson, A., & Grayling, A. C. (2015). The Wiley Blackwell Handbook of humanism: What Is Humanism?. John Wiley & Sons Ltd.

Dawkins, R., & Curless, J. (2018). River out of Eden: A Darwinian view of life. Op. cit.

Delfino, R. A.(2015). The Failure of New Atheism Morality, Studia Gilsoniana 4(3).

Free Inquiry, (1989). Living Without Religion The Ethics of Humanism. Vol. 9. No. 2.

Gordon, B. L. & Dembski, W. A. (2014). The Nature of Nature: Examining the Role of Naturalism in Science. Open Road Media.

Gray, J. (2007). Straw dogs thoughts on humans and other animals. Farrar, Straus and Giroux.

Harris, S. (2012). Free will. Free Press.

Haught, J. F. (2008). God and the new Atheism: A Critical response to Dawkins, Harris, and Hitchens. Westminster John Knox Press.

Lynch, T., & Dahanayake, N. (2016). Atheism and morality, guilt and shame: Why the moral complacency of the new atheism is a mistake. Philosophical Investigations, 40(2).

Merriam–Webster Dictionary. available at:

Mialaret, G. (1979). Vocabulaire de L'ÉDUCATION: ÉDUCATION Et sciences de l'éducation. Presses Universitaires de France.

Murry, W. R. (2007). Reason and reverence: Religious Humanism for the 21st century. Skinner House Books.

PERRY, R. B. (2014). General theory of value. HARVARD UNIV Press.

Rolston, H. (1995). Biology, ethics, and the origins of life. Jones and Bartlett.

Rolston, H. (1999). Genes, genesis, and god: Values and their origins in natural and human history. Cambridge University Press.

Roy, M. N. (1981). New Humanism: A manifesto.Indian Renaissance Institute.

The British Humanist Association (BHA). (2013). A Short Course On Humanism.

Vainio, O.-P. (2013). Objective morality after Darwin (and without God)? The Heythrop Journal, 56(4).

Carroll, S. (2010). Science And Morality:You Can't Derive Ought from Is. Available at:

https://www.npr.org/sections/13.7/2010/05/04/126504492/you-can-t-derive-ought-from-is previewed in: 19/8/2021

Humanists UK, Defining 'humanism', available at:

https://humanism.org.uk/humanism/ Reviewed in: 25/8/2020

Hindson, E., & Caner, E. (2008). The Popular Encyclopedia of Apologetics: Surveying the Evidence for the Truth of Christianity. Harvest House Publishers.

https://www.merriam-webster.com/dictionary/humanism Reviewed in: 24/8/2020

The God Debate II: Harris vs. Craig, "Is Good From God?", Notre Dame College, 7/4/2011, Available at:

https://www.youtube.com/watch?v=yqaHXKLRKzg